خالد القشطيني

فكاهات الجوع والجوعيات



دار الحكمة

لندن

علي مولا

فكاهات الجوع والجوعيات

خالد القشطيني

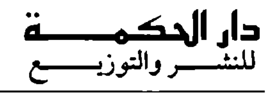
الطبعة الأولى
٢٠١١

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق في بغداد ٢٢٦ لسنة ٢٠١١

- فكاهات الجوع والجوعيات
- **تأليف** :خالد القشطيني
- **الطبعة**: الأولى ٢٠١١
- **الناشر**: دار الحكمة
- **التجهيزات الفنية والطباعة** :المتحدة للطباعة والنشر وتكنولوجيا المعلومات

ISBN:19049239X



88 Chalton Street, London NW1 1HJ
Tel.: **+44 (0) 20 7383 4037** Fax: **+44 (0) 20 7383 0116**
E-Mail: **hikma_uk@yahoo.co.uk** Website: **www.hikma.co.uk**

(١)

الجوع والفكاهة

روى احدهم نكتة ليبية. قال السامع: "حقا؟ هل بدأ الليبيون ينكتون؟ لم نعرف عنهم ذلك. لابد ان الجوع اخذ ينشب اظفاره فيهم فبدأوا ينكتون.

الحكاية تشير الى هذه الرابطة القوية بين الجوع والفقر وبين الفكاهة والسخرية العربية. وأؤكد على كلمة العربية لأن هذه الظاهرة ارتبطت بنكاتنا وفكاهتنا بصورة خاصة.

الجزيرة العربية، الموطن الاساسي لكل العرب، منطقة فقيرة تاريخيا وشحيحة الغذاء والماء، وبالتالي فكثيرا ما تعرض سكانها للجوع والمجاعات. اضطرتهم هذه المجاعات الى الرحيل من ديارهم واللجوء الى منطقة الهلال الخصيب. هذا ما فعله البابليون والعموريون والآشوريون والفينيقيون وسواهم. وكذلك ارغمتهم على اللجوء للسلب والنهب والتحايل. اضطرتهم ايضا للحد من التكاثر والسيطرة على النسل بوئد البنات في الجاهلية والقتل غسلا للعار في عصر الاسلام والتقاتل في كل العصور. ومما يذكر انه عندما استلم قصي ادارة الكعبة في الجاهلية، نظم ركنين، السقاية، وهي توفير الماء للحجاج والرفادة وهي فرض ضريبة لتوفير الطعام للجياع منهم. الكثير مما يجري في ايامنا هذه كالفساد والتقاتل يعود لكل لذلك. ونشأت منه كل ظواهر الاستجداء والتطفل والاستضافة وعيش الشعراء والادباء على المديح، والنزول ضيفا ثقيلا

على الآخرين، ومن الناحية الاخرى فضائل الكرم والضيافة. كلها تمتد جذورها لمشكلة الجوع.

و من هذا التراث الاجتماعي والاقتصادي، نشأ على المستوى الادبي الكثير من الحكايات والطرائف والاشعار والأمثال الشعبية. تسمعهم في العراق يقولون: الشبعان ما يدري بدرد الجوعان. وفي الجزيرة العربية يقولون وبحق: الجوع اقوى من الحب، وجوّع كلبك يتبعك. ولكنني لا اتفق في هذا الكتاب- كما سيرى القاريء- مع ما يقوله الكويتيون في ان من جاع ضاقت ابصاره. ويقول اهل اليمن: كفاك الله شبع الأنذال وجوع الأبطال. وهكذا. وفي تراثنا الكلاسيكي يكفينا من كل ذلك ان نشير هنا الى مقامات الحريري والهمذاني وقصائد المتنبي الاستجدائية. وبعين الوقت وفي هذا الاطار، ردد الظرفاء الكثير من النكات والقفشات والحكايات الفكاهية، بحيث شاع بيننا ما يمكن ان نسميه بالجوعيات: حكايات الظريف الذي يسخر ذكائه وظرفه في اقتحام الولائم والمأكلات ويلتهم اقصى ما يستطيع من اللحم والثريد. نلتقي بالكثير من هؤلاء القوم في حياتنا الاعتيادية. يمكنني ان اقول ان الكثير ممن التقي بهم في المؤتمرات الفكرية والسياسية ينتمون في الحقيقة الى مثل هذه الطائفة.

اعرف مؤرخا شهيرا اعتاد ان يأكل في الولائم ما فوق طاقته. سألته عن ذلك فقال بصراحة، هذا اكل سيكفيني لعدة ايام لا آكل شيئا خلالها! وهو بالطبع ما تفعله الجمال. نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لا نشبع.

سألني يوما احد الانجليز عن روح الفكاهة عندنا وان اعطيه نماذج من نكاتنا. وعندما شرحت له ان الكثير منها يعود تاريخيا الى فكرة الحصول على مأكلة بالمجان، قال لي ان هذا النوع من الفكاهة عندهم يرتبط اعتياديا

بالحيوان، الثعلب الذي ينجح في اصطياد دجاجة او القط الذي يحصل على لحمة، وهلمجرا.

الحقيقة انني لم اسمع قط عن نكتة او ملحة انجليزية تتعلق بحصول انسان على اكلة. البون بين الحضارتين يعكس حالة الوفر الذي يعيشه الاوربيون والفاقة التي عاشها اجدادنا وتمخضت عن هذا التراث، فكاهة الجوعيات. هذا موضوع جدير بالدرس والتنقيب والتحليل، وهو ما سأفعله في الفصول القادمة من هذا الكتاب بعونه تعالى.

=================

(٢)

سادة قريش ومرارة الجوع

كانت قريش تمثل ارستقراطية العرب، والصحابة يمثلون اعيان قريش ومكة تمثل المركز التجاري لبلاد العرب. ومع ذلك، فكثيرا ما عانوا من مضاضة الجوع والقحط. وفي ذلك حكايات كثيرة. منها ما استوقفني واثار تفكيري. لاحظ النبي اثنين من صحابته يجريان في الطريق في عنفوان الحر. خرج يسألهما عما اخرجهما من بيوتهما تحت هذه الشمس اللاظية فقالا الجوع يا رسول الله. فعاد لبيته وجاءهما بتمرتين يسندانهما حتى يفتح الله لهما.

حكاية غريبة، ان يعاني اثنان من سادة القوم من مثل هذا الجوع الممض. بل واكثر من ذلك، الا يكون باستطاعة النبي، وهو رئيس الدولة، ان يدعوهما للأكل في بيته او يقدم لهما من الزاد شيئا غير تمرتين. " لقد ذاق النبي وعرف تماما مرارة الجوع والقحط والفقر الذي ساد الجزيرة العربية. ففي باكورة حياته وجد نفسه مضطرا لمفاوضة العباس على مساعدة عمه ابي طالب لكثرة عياله بأن يأخذ العباس ابنه جعفر ويتعهد بتربيته ويأخذ النبي عليا ويربيه في بيته. وذكرت عائشة– كما جاء في البخاري– ان زوجها كان يشتري الطعام من يهودي بالنسيئة ورهن عنده درعه كأمانة. وعندما توفاه الله كانت درعه " مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعا من الشعير."

وروى المؤرخون المسلمون انه ذهب لزيارة الزبير، والد طلحة فسارع هذا الى الايعاز لزوجته بأن تعد شيئا من الطعام للرسول فقالت ليس ببيتنا من الطعام ما نقدمه. لا يوجد عندنا غير معزة غير حلوب. فألح عليها ان تحاول. فهذا نبي الله في البيت. من اين له ان يتركه يخرج دون ان يستضيفه لشيء. فحاولت فإذا بالمعزة تدر عليها من لبنها ما لم تعهده. فعملت من ذلك اللبن شيئا قدمته للنبي. وكانت بركة رسول الله ان اعطت المعزة ذلك اللبن. وهذا مثل عجيب آخر ان يكون مثل هذا الصحابي، سيد من اسياد قومه، وليس في بيته من الطعام ما يستطيع تقديمه لضيف. وفي رواة اخرى ان النبي رأى تمرة على الطريق فقال:" لولا اني اخاف ان تكون من الصدقة لأكلتها. "

وقد وصف هذا الفتى اليتيم، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم مدى ما عاشه من فقر وضيق فقال: " لقد رعيت غنيمات اهل مكة لهم بالقراريط."

لا عجب في كل تلك الحكايات اذا صدقنا رواية هيكل في كتابه القيم عن سيرة النبي بأن محمدا بن عبد الله لم يشبع قط ولم يطعم خبز الشعير ليومين متتالين وكان سويق الطعام اكلته الكبرى وكان التمر طعام سائر يومه" ولقد عانى من الجوع غير مرة حتى كان يشد على بطنه حجرا يكظم به صيحات معدته." وذكر المؤرخون ان النبي عندما تزوج ام سلمة اولم لصحبه وكانت وليمته التمر والسويق وعندما تزوج بصفية بنت حيي كانت وليمته الحيس والتمر.

وروى ابو هريرة فقال انه الزم الرسول بشبع بطنه وكثيرا ما كان الصق بطنه بالحصباء من الجوع ورأى ان جعفر بن ابي طالب كان اخير الناس فكان " يخرج الينا العكة التي ليس فيها شيء فنلعق ما فيها."

تعطينا عائشة رضي الله عنها وصفا دقيقا لما عانت المرأة من الجوع في وصف نحافتها وخفة وزنها فتقول ان القوم وضعوا هودجها على الجمل في احدى الغزوات ضنا منهم انها كانت فيه. " وكان النساء خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه."

وقدجاء في صحيح البخاري ما رواه عن جابر به عبد الله. قال: " خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا ففني زادنا حتى كان الرجل منا يأكل في كل يوم تمرة. قال رجل: يا ابا عبد الله، واين كانت تقع التمرة من الرجل؟ قال لقد وجدنا فقدها حين فقدناها."

و من المعروف ان القوم كانوا يتقاسمون التمرة الواحدة وكان المحظوظ منهم من يحصل على النصف الذي يحتوي النواة فيظل يلوك بها ليله ونهاره. ولكنهم في الأردن لا يتقاسمون التمرة فقط بل والجرادة ايضا كما سمعنا في قولهم :" جرادة وتقاسموها سبعة!" وروى عتبة بن غزوان، فاتح بلاد العراق وايران، فوصف ما كان عليه اهل مكة في اول الاسلام فقال:

" لقد مكثنا زمنا ما لنا طعام الا ورق البشام(وهو نبات طيب الريح يمصون قصبه) اكلناه حتى تقرحت اشداقنا. ولقد وجدت يوما تمرة فجعلتها بيني وبين سعد(القائد سعد بن ايس وقاص)."

و يروي ابن الجوزي فيقول: " في سنة ٣٤٣ ذبح الاطفال واكلت الجيف... وفي سنة ٤٤٨ عم القحط فأكلت الميتة ... وفي سنة ٤٦٢ اشتد الجوع والوباء بمصر حتى اكل الناس بعضهم بعضا... وخرج وزير صاحب مصر فنزل عن بغلته فأخذها ثلاثة فأكلوها فصلبوا. فأصبح الناس لايرون

غير عظامهم تحت خشبهم..." الحقيقة ان ما رواه ابن الجوزي هو جزء يسير من سلسلة طويلة من المجاعات التي اجتاحت العالم العربي ابتداء من عهد الخليفة ابي بكر الصديق. ويذكر فليب حتي ان الجزيرة العربية عانت بعد وفاة الرسول من زيادة السكان. ويرى المؤرخون الاقتصاديون، كما ذكر فرانسيس غابريلي " محمد وفتوحات الاسلام" ان سكان الجزيرة العربية قد تكاثروا بعد انتشار الاسلام بنسبة ١٠-١٥ بالمائة في القرن ورافق ذلك تضخم نقدي وارتفاع في الاسعارفي عهد الخلفاء الراشدين. ولا ادري إن كان ذلك يعود الى التوقف عن وئد البنات

و استتباب الأمن والسلام وتنظيم الزواج الذي جاء به الدين الحنيف او الامتناع عن اكل الخنازير والحمير، او الى كل هذه العوامل مجتمعة. ولكنني اعتقد ان تلك المجاعة وزيادة السكان كانتا من العوامل التي دفعت بالخليفة وبالمسلمين الى الخروج من الجزيرة العربية وفتح العالم، وكأن الله سبحانه وتعالى قد سخر تلك المجاعة ليتم بفضلها نشر الاسلام في الدنيا الواسعة. وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

وقد ورد ذكر الجوع والتحذير منه عدة مرات في القرآن الكريم. وفيه جاء ذكر الأكل ١١٠ مرة وذكر الطعام ومشتقاته ٤٨ مرة. تشير الملائكة على مريم العذراء وهي تلد السيد المسيح ان تهز النخلة ليتساقط عليها رطبا جنيا، وتخاطبها فتقول لها " كلي واشربي وقري عينا." الأكل نعمة واعتدنا على تسمية الخبز والطعام بالنعمة ونعمة الله. ويحذر الله تعالى آدم من ابليس لئلا يخرجهما من الجنة فيشقى ويذكره بنعمة حياته في الجنة حيث " لا تجوع فيها ولا تعرى."

و خصص ابو حيان التوحيدي عدة صفحات من كتابه الشهير "الامتاع والمآنسة" لذكر الأكل والشبع وروى عن يزيد بن ربيع ان الماء والملح هما طعام الأعراب. وقيل لأعرابي ما حد الشبع، فقال: " اما عندكم يا حاضرة فلا ادري. واما عندنا في البادية فما وجدت العين وامتدت اليه اليد ودار عليه الضرس واساغه الحلق وانتفخ به البطن واستدارت عليه الحوايا واستغاثت منه المعدة وتقوست منه الاضلاع والتوت عليه المصارين وخيف منه الموت! "

من هذه الخلفية الاقتصادية والاجتماعية ورثنا كل هذه الثروة من ظرافات الجوعيات ونكات البخلاء والثقلاء والطفيليين. الأدب العربي مليء بحكايات التخمة والذين تراهنوا على الاكل فأكلوا حتى اشرفوا على الموت. والكثير منهم مازالوا بيننا.

==================

(٣)

ظرفاء الصحابة

اذا كنا قد ربطنا بين الجوع والنكتة وذكرنا ما عاناه صحابة رسول الله من شظف العيش والجوع، فمن الحري بنا ان نتوقع توارد الظرف والفكاهة بين تلك النخبة التي ارست دعائم الدين الحنيف، علما بأن الظرف يرتبط دائما بحدة الذكاء والفهم.

اول ما يرد للذهن هنا ان الخليفة عثمان بن عفان كان من طلائع رواد النكتة حتى قال فيه النبي يدخل عثمان الجنة ضاحكا لأنه كان يضحكني. ومن المعلوم ان المؤرخين وصفوا ان النبي كان يضحك من كل قلبه وبكل جوارحه حتى تظهر ثناياه. وكان من ولع عثمان بن عفان بالضحك والنكتة ان الحق اشعب الطماع، المنكت المشهور، بمعيته. وكان قد اضحك النبي بنكتة تعلقت هي الاخرى بالأكل. لاحظ رسول الله ان عثمان كان يأكل تمرا وفي احدى عينيه رمد فانتقده على ذلك: " أتأكل التمر وانت ارمد؟" فأجابه، " أنا آكله من الجانب الآخر!"

ورد اكثر من حديث شريف في هذا الشأن، ومنها قوله :" روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة. فإن القلوب اذا كلّت عميت." وفي حديث آخر قال: " انا امزح ولا اقول غير الحق." وهو منتهى الحكمة وقمة الفكاهة النافعة. ومن الواضح ان محمد بن عبد الله كان النبي الوحيد الذي وردت عنه وعن صحابته ومجلسه طرائف ومؤانسات تروى في بطون ادب الفكاهة والظرف.

من الظرفاء البارزين بين الصحابة، كان نعيمان الانصاري. رويت عنه نكات كثيرة حتى قال ابن قتيبة ان النبي بقي يضحك سنة كاملة لإحدى نوادر نعيمان عندما عمل مقلبا على رجل بدوي حر فباعه كعبد. ورويت عنه نكتة اخرى ارتبطت بالطعام ايضا. صادف بدويا يبيع جرة من العسل فاشتراها منه على ان يستلم ثمنها عند تسليمها. ثم بعث بها هدية الى الرسول. فسر النبي بوصولها ووزع ما فيها على الصحابة كشأنه. ودعى لنعيمان بالخير والبركة. ما انتهى من ذلك حتى طالبه البدوي بثمنها. فقال عليه الصلاة والسلام: " هذه احدى هنات نعيمان." ثم تسائل منه عند ظهوره بين يديه فقال: " انما اردت برك يا رسول الله ولم يكن معي شيء!"

كان ظرف نعيمان الانصاري من نوع المقالب والمداعبات العملية ولم يكن من ظرف اللسان وبلاغة التعبير. فمن طرائفه الاخرى المقلب الذي اوقع فيه رجلا اعمى اراد ان يتبول فقاده الى داخل المسجد. وعندما اكتشف ما وقع به، اقسم ان يضرب نعيمان حالما يلقاه، فجاءه نعيمان وقال " هل لك يا ابا المسود في نعيمان؟" فقال نعم. فأخذه الى حيث كان عثمان بن عفان جالسا فانهال على الخليفة ضربا!

من الملاحظ ان معظم المفردات المتعلقة بالفكاهة ارتبطت بالطعام والأكل والجوع فالفكاهة مشتقة من الفاكهة. والرجل يتفكه عندما يمزح ويضحك. والملحة من الملح والنادرة من الندرة والنكتة من مرادفات التمر والهزل من الهزال والظرف من وعاء الطعام والكتكتة من القرقرة. ولنا عود لكل ذلك .

================

(٤)

اشعب الطماع

اشعب الطماع من اشهر واظرف الفكاهيين في الاسلام ومن صحابة خلفائه الراشدين رضي الله عنهم. وقد لقب بالطماع لا لطمعه بالفلوس كما هو الحال مع ساستنا وزعمائنا ووزرائنا المعاصرين وانما لطمعه بالأكل والولائم تماما كما هو الحال مع شعرائنا وادبائنا ومثقفينا المعاصرين في زماننا هذا. كان مقربا بصورة خاصة لدى الخليفة عثمان بن عفان (ر.ض) لولع هذا الخليفة بالفكاهة والمزاح. وهو يمثل خير تمثيل الظاهرة التي انا بصددها، وهي رابطة الجوع بالفكاهة في الادب العربي، ما سميناه بالجوعيات. وكان من آخر ما سمعته منها ما رواه لي زميلي امام محمد الأمام.

اعتاد الشغالون السودانيون على التدفق الى القاهرة للعمل في مصر. ولكن الآية انقلبت مؤخرا فأخذ المصريون يتدفقون الى الخرطوم طلبا للرزق. عاد احدهم لبيته في الست زينب وجلس يروي للقوم طرائفا ونكات سمعها في الخرطوم. فتح السامعون افواههم عجبا حتى قال احدهم: " حاجة غريبة قوي! السودانيين ينكتون! اولاد الشرموطة، لازم بديوا يجوعون!"

جسم اشعب حالة الجوع التي اتيت على تصويرها سابقا كما اجتاحت المجتمع العربي في صدر الاسلام. وكان شخصية غريبة جدا بعينين زرقاوين وبشرة قاتمة ووجه مطواع لشتى الحركات والتعابير الكوميدية.

لا ادري من اين جاء بهاتين العينين ولكن امه كانت امرأة خاملة الذكر في المدينة ورغم انه عرف بإسم اشعب بن جبير فلم يذكر احد شيء عن ابيه هذا، جبير، مما يحملني الى الاعتقاد بأنها كانا امرأة عاهرة من عاهرات الجاهلية وحملت بهذا الفتى من احد ضيوف المدينة. اشرت اليه في كتابي " السخرية السياسية العربية " بأنه كان بحق اول مهرج محترف وممثل هزلي عرفناه في تاريخ العرب. وكمهرج محترف لم يكن يخشى الاخفاق في امتاع مشاهديه بغنائه ورقصه وتحامقه. وقد افرد المستشرق فرانز روزنثال دراسة مستفيضة عنه وعن فنه المستحدث، انتهى فيها الى القول بأن نوادر اشعب تبقى اصيلة ونمطية رغم كل ما ورد في الأدب اليوناني من فكاهات مماثلة. واعتقد ان السر في نمطيتها وخصوصيتها انها ارتبطت ارتباطا قويا بظاهرة الجوع والفقر.

اصبحت نوادر اشعب الطماع مثالا احتذاه الظرفاء في كثير من النوادر التي وردت في بطون النثر العربي، ولاسيما في كتاب الأغاني والعقد الفريد، لتعبر عن حياة الفقر والقلة والاتكالية والاستجداء التي شاعت في العصر العباسي الذهبي حيث تزامن الفقر المدقع مع الغنى المفرط. بيد ان نوادر هذا الظريف المديني بقيت اصيلة وخالدة.

سألوه يوما عن طمعه وما اذا كان قد التقى بأحد يبزه في الطمع فقال نعم: " كلبة قوم شاهدتها تتبع شخصا يمضغ علكا وابتعدت بها يزيد من الفرسخ في امل ان يرمي لها بشيء مما يأكل!" وجاء في العقد الفريد انه سألوه " ما بلغ من طمعك؟ فقال ما نظرت الى اثنين يتساران الا ظننتهما يأمران بشيء لي!"

و روى صاحب " العقد الفريد انه صادف رجلا خزافا يعمل طبقا فقال له: " اسألك بالله، الا ما زدت في وسعته طوقا او طوقين ."

فقال له الرجل " وما معنى ذلك؟"

قال: " لعل ان يهدى الي فيه شيء!"

هكذا لقبوا اشعب بالطماع لحكايات كثيرة وردت عنه ولا بد ان كان لبعضها على الاقل من اساس واقعي على مستوى الحياة اليومية لشعب اضناه الجوع والفقر. سألوه يوما ما بلغ من طمعك يا اشعب؟ فقال: مازفت عروس في المدينة الى زوجها الا وكنست بيتي وفتحت بابي، لعلهم يأتون بها الي!

و في رواية اخرى وردت في كتاب الاغاني انه قال: مررت بإمرأة تصنع طبقا فقلت لها: بالله عليك زيدي فيه ووسعيه. قالت لماذا؟ قلت لعله يهدى الي فيه شيء. ولأن يكون كبيرا يسع كثيرا خير من ان يكون صغيرا!"

وقد اورد صاحب العقد الفريد نفس الحكاية ولكن بصيغة اخرى.

و جاءت على غرارها امثلة اخرى لطرائف رويت عنه. راح يصف ما يدور بخلده فقال " ما رأيت اثنين يتساران في جنازة الا وقدرت ان الميت قد اوصى بشيء لي." وله قول مقارب من ذلك ورد في وفيات الاعيان انه ما رأى دخانا ينبعث من بيت جاره الا واثرد الخبز لعمل الثريد!

و هي من الطرائف الجوعية التي اصبحت اساسا لكثير من حكايات البخلاء والطفيلية في العهود التالية من التاريخ العربي.

وقد ذكرت سابقا كيف انه لم يجد مخلوقا اكثر طمعا منه غير كلب تابع لمسافة طويلة رجلا يمضغ علكا املا في ان يرمي له بشيء منه، ولكن

اشعب روى حكاية مشابهة عنه شخصيا. قال تبعت الضحاك بن مخلد وهو يريد بيته، فالتفت الي وقال: ما لك يا اشعب؟ قلت له، يا ابا عاصم، رأيت قلنسوتك قد مالت فتبعتك، لعلها تسقط فآخذها. فنزعها من رأسه واعطانيها!"

و حكى فقال إن امرأة جائته بدينار لتودعه عنده. فاستلمه ووضعه تحت الفراش. جاءت بعد ايام لتتفقد الدينار. فقال لها انظري إياه تحت الفراش وخذي ولده. وكان قد وضع بجانبه درهما. فتركت الدينار واخذت الدرهم مسرورة راضية. وعادت بعد ايام فوجدت معه درهما آخر. فأخذته كذلك. وعادت في اليوم الثالث فوجدت مثله وهكذا. فلما جاءت في اليوم الرابع وجدت اشعب ينحب ويتباكى متألما. فقالت له: ما يبكيك يا اشعب؟ فأجابها: مات الدينار في النفاس! فقالت وكيف يكون للدينار نفاس؟ فأجابها: " يا حمقاء! تصدقين بالولادة ولا تصدقين بالنفاس؟!"

ربما نستأنس بهذه الطريفة دون ان نأخذها بمأخذ الجد، وقد تكون من إضافات العهود اللاحقة، بيد ان جوعيات اشعب تتجلى بأصدق صورها النمطية في جولاته وصولاته في الولائم والمآتم، مما سنتعرض اليه في فيما بعد.

يمكننا ان نضيف لأشعب الطماع صفة اخرى فنقول ايضا اشعب الحزين. فقد كان كمعظم الفكاهيين والساخرين والمهرجين يعيش في غمامة من الكآبة والضيق. قال يوما :" يطلبون مني نوادر تضحك الملوك، ثم يعطونني عطاء يبكي العبيد!" وتحدث عن سيرته وسوء نصيبه من الحياة فقال: " نشأت انا وابو الزناد في حجر عائشة بنت عثمان، فلم يزل يعلوهو وانا اسفل حتى بلغنا هذه المنزلة." يظهر من الحكاية ان امه لم

تتعهد به فتركته لرعاية الغرباء، مما يفسر سوء علاقته بها التي عرف بأنها كانت عاهرة شهر بها وكان هو ابن سفاح لها، مما كان شائعا قبل الاسلام. جاء في كتاب الاغاني انها بغت فضربت وحلقت وحملت على جمل وطيف بها وهي تنادي: " من رآني فلا يزنين!" وقد اشرفت امرأة عليها فقالت: " يا فاعلة نهانا الله عز وجل عن الزنا فعصيناه. ولسنا ندعه لقولك وانت محلوقة مضروبة راكبة على جمل يطاف بك!"

لاحظوا لحيته الخفيفة وهيئته الغريبة كما اسلفنا فسألوه كان ابوك كثيف شعر الذقن فمن اين ورثت لحيتك الخفيفة ؟

فقال :" من امي!" ومن مداعباته السوداوية معها انه حدثها ذات يوم عن رؤيا حلم بها في المنام وقال لها: حلمت بأنك كنت مغطاة بالعسل وكنت انا مغطى بالغائط." فقالت له: " ويلك! هذه كلها ذنوبك غطاك الله بها." فقال لها: " مهلك. لقد رأيت ايضا في الحلم انني كنت الحسك وانت كنت تلحسينني!"

و هذا حلم يهش لتحليله مريدو فرويد. وربما يجدون ايضا ما يقولونه بشأن حلمه الآخر حين حدث اصحابه عن حلم عجيب مر به فسألوه. فقال: حلمت "أنني كنت احمل كيسا مثقلا بالمال واتسخت من ثقله ثيابي. وعندما استفقت وجدت ثيابي ملوثة حقا ولكن لم اجد المال!"

لم يرد ذكر فيما قرأته عن اشعب الطماع الحزين بشأن علاقته بوالده او زوجته ألكنه قال: " اطلبوا لي امرأة اتجشأ في وجهها فتشبع، وتأكل فخذ جرادة فتتخم !" ولا يملكنا غير ان نقول الله يساعد زوجته. ولكن كان له ولد اعتاد على اصطحابه للولائم. وحدث ان لاحظ ابنه يشرب كثيرا من

الماء في احدى هذه الولائم السخية فلكزه وانبه :" تملأ بطنك بالماء وامامك كل هذا الأكل اللذيذ يا غبي!" فأجابه ابنه: " كلا يا ابتي! انما اشرب الماء لأزيح ما اكلت من طعام وافسح المكان لطعام آخر." تأمل اشعب في هذا الجواب ثم لكز ابنه ثانية: "يا لعين! تعرف هذا ولا تقوله لي!"

و هي طريفة من اظرف ما سمعته عنه وتجسم ظاهرة الجوع بأفجع صوره. وقد ورد عنه في الأغاني ان صبيان المدينة قد ضايقوه يوما فحاول التخلص منهم فقال لهم هناك عرس في الموضع الفلاني. فتركوه وهرعوا الى العرس. ولكنه ما لبث ان اخذ يصدق ما قاله فراح يجري وراءهم.

وقد عاش طويللا فنسك وغزا واجاد تلاوة القرآن وربما صلى بالناس القيام. كان له صوت رخيم واجاد الغناء حتى ان المغني الشهير معبد كان يعتبره مصدرا يستشار في الغناء. وموهبة الغناء مما يتصف به المهرجون عموما في شتى المجتمعات.

=================

(٥)

التراث الاشعبي

رأينا كيف ترك اشعب الطماع ذلك التراث الجوعاني من النكات والمقالب التي اصبحت اساسا لهذه الفصيلة الطويلة من الفكاهة العربية، الجوعيات. في احدى نماذج هذه الطرائف نجد كيف ان العرب ابدعوا في تسخير اعتزازهم بلغتهم وحذلقاتها البلاغية والنحوية في صياغة هذه الطرائف. مرض فتى واشرف على الموت في مرضه فحاول عمه ان يواسيه ويشجعه فسأله ماذا من الأكل تشتهي؟ فقال رأس كبشين. فأجابه عمه ان ذلك في غير الامكان. فقال الفتى، اذن فرأسي كبش!

ترى ما الذي كان يطلب لو انه لم يكن مشرفا على الموت؟

و من اللعب بالألفاظ ان ذكروا ان احمد رامي دعي الى وليمة، اعجبه منها طبق " ضلمة" وإن كانت بدون لحم، فركز عليها متجاهلا الاطباق الاخرى. فقال له صاحب الدعوة: يا استاذ كل من الاطباق الاخرى فالضلمة دي كذابة.

فأجابه: وانت مالك، انا مصدقها!"

وردت حكايات كثيرة عن هرون الرشيد ومنها انه كان يستضيف ابا الحارث جمين وعيسى بن جعفر. طرح امامهما خوان عليه ثلاثة ارغفة فأسرع ابو الحارث واكل رغيفه قبلهما ثم نادى على غلامه ان يأتيه بحصانه. فدهش الخليفة وسأله عن ذلك فقال اريد ان اركبه الى ذلك الرغيف الذي بين يديك. فضحك الرشيد وامر له بصلة.

و للأبي الحارث بن جمين طرائف جوعية اخرى ومنها انه ارتفق مع عدد من رفاقه في شراء شيء من اللحم، يطبخونه ويأكلونه سوية. فلما تلهوج اللحم ونضج، انتشل احدهم قطعة منه واكلها قائلا: " إنها تحتاج الى ملح". ونشل آخر قطعة اخرى وقال: تحتاج الأكلة الى توابل. والتقط ثالث لحمة اخرى وابتلعها قائلا: " وتحتاج الى بصل." وعندئذ رفع ابو الحارث القدر واخفاه وراءه قائلا: وهذا القدر يحتاج والله الى لحم!"

واصاب رجل كبد الحقيقة في معيشة المدقعين والمعدمين عندما مرض وعاده الطبيب وامره بالامتناع عن اكل السمك واللحم. فقال له: لوكانا عندي ما اعتللت.

و لم تكن مجرد نكتة عندما سمعت مثيلها من زميل لي في كلية الحقوق ببغداد، اعتل قبيل الامتحان فنصحه طبيب لبناني بأن يمتنع عن اكل المعكرونة والبقلاوة ونحوهما من المعجنات والسكاكر! وكان على حالة تعيسة من الفقر. فقال للطبيب ساخرا: " لا دكتور، الله يخليك! ممكن اترك المعكرونة ولكن البقلاوة ... آه لا استطيع ان اعيش بدونها!"

كان من ظرفاء العرب ايضا مزبد المديني.جاء يوما برأسي خروف مطبوخين مما يسميه العراقيون برأس باجا. وضعهما امام زوجته وقال لها اقعدي لنأكل. فأخذت احد الرأسين ووضعته خلفها وقالت هذا لأمي. بادر مزبد فأخذ الرأس الآخر ووضعه خلفه قائلا وهذا لأبي. قالت فماذا نأكل؟ قال ضعي رأس امك وانا اضع رأس ابي.

استمر هذا النهج الى عصرنا هذا وبقي ما بقي الفقر والجوع معشعشا في اوطاننا العربية.

================

(٦)

بين الوهم والحقيقة

ربما يتسائل القاريء عن مصداقية كل ما سبق واوردته. وهو ما حصل لبعض القراء والمستمعين. اثار بعضهم بالفعل شتى الاعتراضات والشكوك بشأن ما اسرده عن الجوع والفكاهة في التراث العربي. الحقيقة ان جل ما اوردته في هذا الكتاب يمتد تاريخه لنحو ١٣ قرنا. وبكل صراحة لو ان قارئا سألني عما اكلته يوم امس لما استطعت ان اتذكر. واتوقع لو انني سألت القاريء هذا عما اكله او شربه هو يوم امس، فأكثر احتمال انه لن يستطيع ان يتذكر.

و لكن من القصص التي خلدت في ذاكرتي منذ ايام الصبا ولم انسها كما نسيت ما اكلت، الجواب الذي افاد به الكاتب الفرنسي الكبير اناتول فرانس. سألوه عن استهتاره بالتاريخ وتجاهله له فأجاب واشار الى حادثة مرور وقعت امامه وهو جالس في شرفة بيته. قال رأيتها بأم عيني ولكنني عندما قرأت ما كتبته الجرائد عنها في اليوم التالي جاء مناقضا كليا لما شهدته. واكثر من ذلك لم تتفق الجرائد المختلفة في سردها لما وقع. ناقضت كل واحدة منها الاخريات.

قال، كيف تنتظرون مني ان اصدق ما اقرأه في الكتب عن احداث وقعت قبل مئات السنين بعد ان رأيت بعيني كيف ضاعت الحقيقة بين ليلة وليلة؟

اثناء دراستي للقانون حدثني احد اساتذتي عن الحذر في الاستماع لشهادات الشهود. إنهم لا يتقصدون الكذب ولكن دماغ الانسان

سرعان ما يتشوش وتضطرب الذكريات فيه وتضيع بمرور الايام. منذ ان قرأت ما قاله اناتول فرانس، اخذت اتجاهل التاريخ ولا اقرأ الكتب التاريخية، ناهيك عن مذكرات الساسة والقادة.

الأخ محمد هلالي، مثلا، طالبني بالدقة. وتسائل ما دخل صحابة رسول الله في مغامرات اشعب؟ وكتب فارس الطويل من المانيا ليفيدني بأن ما اوردته عن عثمان بن عفان وقع لصهيب وليس لعثمان. والسيد احمد عبد الباري يصححني ويقول ان النبي لم يكن يضحك بل يبتسم فقط. ومن بريطانيا سألني فهد بدر من اين جئت بهذه

المعلومات؟ يا سادتي حضرات القراء الكرام، اؤكد لكم انني لم اجيء بها من جيبي. وكيف اجرؤ على ذلك والموضوع يتعلق برسول الله وصحابته؟ كل ما ذكرته من معلومات اقتبسته، وعلى الأكثر بالنص، من امهات الكتب العربية المحترمة. ولكن ماذا افعل اذا كانت هذه الكتب تناقض بعضها البعض؟ من اصدق منهما اذا كان كتاب "الامتاع والمآنسة" يسند الحكاية لصهيب و" العقد الفريد" يسندها لعثمان؟

اذا كان اناتول فرانس قد شكى من افتراءات الصحافة الفرنسية فنحن ننتمي الى امة تتباهى بأن الشعر ديوان العرب وتعود فتقول اعذب الشعر اكذبه! الحقيقة التي ينبغي ان نضعها نصب أعيننا هي ان السلف تعاملوا مع التاريخ كما لو كان شعرا. الأختلاق فيه إبداع مقبول ومشكور. معظم من شهدوا وقائع تاريخنا كانوا افرادا اميين

والمتعلم منهم لم يمسك أي دفتر يوميات يدون فيه ما يمر به او يسمعه. وراحوا يروون الوقائع بعد سنين طويلة وإثر دخولهم سن الشيخوخة لعنها الله، وربما سن الخرف ايضا وقانا الله منه.

================

(٧)

الطعام وخير الكلام

اعتادت معظم الشعوب على الاستشهاد والاقتباس من النصوص المقدسة التي عندها. وكان الاغريق اول من انتبه لذلك فسموه بالهايبربولا. كذا فعل الاوربيون فسمعناهم يلتقطون شتى العبارات والكلمات من الكتاب المقدس ويستعملونها لأغراضهم السياسية والاجتماعية والادبية. ولكننا فقناهم جميعا في ذلك بسبب كثرة حفظنا للنصوص القرآنية وتعلقنا بكل ما جاء في المصحف الشريف. كان لنا جار مسيحي، الذكتور عبد الله القصير، دفع بولديه خالد وزهير لوالدي ليعلمهما ويحفظهما القرآن. قال لا تكتمل ثقافة المواطن العربي، مسلما كان او يهوديا او مسيحيا، بدون ذلك.

هكذا اعتدنا في كل المناسبات والملابسات على الاستشهاد بشيء من المصحف الشريف نقطع به دابر الشك والجدال والخصام. كل ساستنا وزعمائنا يلجؤن لذلك، وفي اكثر الاحيان زورا وكذبا على الله. الأدب العربي مليء بالطرائف والحكايات على هذا السياق. من اطرفها ما اورده الابشيهي في كتابه "المستطرف في كل فن مستظرف" عن المتكلمة بالقرآن. التقى بها عبد الله بن مبارك في طريقه لحج بيت الله الحرام. وكانت امرأة عجوز ارتدت درعا وخمارا من الصوف وظلت طريقها في البادية. راح يحاورها ويسألها، وبالطبع سألها عن الطعام، موضوعنا ورابط كلامنا،

سألها: انت منذ كم في هذا الموضع؟ فقالت " ثلاث ليال سويا." فقال: ما ارى معك طعاما؟ فأجابت: " هو يطعمني ويسقين." عاد فسألها: وبأي شيء تتوضئين؟ قالت:" فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا." فقال: إن معي طعاما، فهل لك في الأكل؟ قالت: " ثم اتموا الصيام الى الليل." فقال: ليس هذا بشهر رمضان. فأجابت: " ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم." قال: لقد ابيح لنا الإفطار في السفر. فقالت: " وإن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون." قال: فلم لا تكلميني بمثل ما اكلمك؟ فأجابت: " ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد." قال: فمن اي الناس انت؟ فأجابت: " ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفوآد كل ؤلئك كان عنه مسؤولا."

والى آخر هذا الحوار العجيب والطويل. بيد ان رجلا آخر التقى بجارية حسناء فتنته فلم يجد مخرجا او مدخلا لمناوشتها ومعاكستها بغير الاستشهاد بالذكر الحكيم فأثنى على جمالها وقوامها وقال: " وزيناها للناظرين." بيد ان هذه الجارية لم تكن حسناء فقط بل وكذلك بليغة في كلامها وعالمة بقرآنها فردت عليه قائلة:

" وحفظناها من كل شيطان رجيم."

فأجابها قائلا: " بل هي فتنة ولكن اكثرهم لا يعلمون."

فردت عليه: " واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب."

قال لها: "نريد ان نأكل منها وتطمئن قلوبنا"

قالت: " لن تنالوا البر حتى تنفقوا."

من يأكل عليه ان يدفع ولكن: " وإن كان ذو عسرة؟"
عليه ان ينتظر. قالت: " حتى يغنيهم الله من فضله."
"و الذين لا يجدون ما ينفقون؟"
" ؤلئك عنها مبعدون!"

نظر الرجل المعدم اليها بحسرة والم. رفع يده الى السماء وردد يائسا ثائرا:
" الا لعنة الله على نساء الارض اجمعين!"

و عادت السيدة الى كتابها العزيز الحكيم فقالت: "للذكر مثل حظ الانثيين!"

و لكن نفرا غيرهم من الطفيليين الاكولين استخرجوا من الذكر الحكيم ما يطعمهم. ذهب احدهم لزيارة رجل حاول صرفه عن الأكل بإشغاله بأمور الدين والآخرة فسأله ما علمك بالقرآن واي سورة تعجبك منه؟ فقال" المائدة" عاد فسأله واي آية منه؟ قال: " ذرهم يأكلوا ويتمتعوا." قال: ثم ماذا؟ قال " آتنا غدائنا." سأله: ثم ماذا؟ قال: " ادخلوها بسلام آمنين." سأله، ثم ماذا؟ قال: " وما هم عنها بمخرجين."

حاول مضيف آخر ان يشغل ضيفه عن الأكل وقد امعن به دون رحمة فسأله ان يحكي له قصة يوسف، وهي اطول ما في القرآن من القصص. فأختصرها بأربع كلمات: " راجل ضيع ولده ولقاه!"

و هي لعمري من ابلغ ما قيل، طالما قالوا ان البلاغة بلوغ المعنى بأقل الكلام. وواصل الرجل ضرب الرز واللحم والمرق غير هائب او مبال.

=================

(٨)

التين والزيتون

" التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين" من الآيات الكريمة التي طالما اثارت قرائح الطفيليين والفكاهيين الجائعين والاكالين. ولا عجب فما اطيب على النفس من تجاور التين والزيتون على المائدة، إن لم يكن في المصحف الشريف.

روى الاصمعي فقال انه استضاف اعرابيا لمأدبة ثم دعى جاريته ان تأتيهما بالتين. فنسيته. فقال للأعرابي بعد ساعة: اتحسن شيئا من القرآن؟ اجاب بنعم. فسأله ان يقرأ شيئا منه. فقرأ: " بسم الله الرحمان الرحيم. والزيتون وطور سينين." فاستوقفه الاصمعي قائلا: واين التين؟ قال: " نسيته انت وجاريتك."

الفالوذجة مادة اخرى اثارت قرائح الظرفاء. فقال ابو الحرث لو ان موسى عليه السلام ارى فرعون قطعة فالوذج بدلا من العصا لآمن بالله!

اعود الى صاحب " المستطرف" لأغترف من طرائفه امثلة اخرى عن هذا الاستعمال الهايبربولي للنصوص القرآنية في غير ما وضعت اليه من المواقف. يروي الابشيهي كيف ان الحمدوني دخل على رجل وعنده اقوام وامامهم اطباق من الحلوى دون ان يمدوا ايديهم اليها. فقال لقد ذكرتموني ضيف ابراهيم وقوله تعالى :" فلما رأى لا تصل اليه انكرهم واوجس منهم خيفة." ثم قال " كلوا يرحكم الله. فضحكوا واكلوا.

قالوا ان ابراهيم الخليل عليه السلام كان اول من سن القرى. وقيل انهم سألوه بم اتخذك الله خليلا؟ فقال: "بثلاث. ما خيرت بين شيئين الا اخترت الذي لله على غيره. ولا اهتممت بما تكفل لي به. ولا تغديت ولا تعشيت الا مع ضيف. ويقولون ما خلا مضيف الخليل من ضيف الى يومنا هذا ليلة واحدة. ويستشهدون هنا بما ورد في سورة الذاريات، " هل اتاك حديث ضيف ابراهيم الخليل المكرمين."

و قال علي بن الحسين رضي الله عنه: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه كما خدمهم ابونا ابراهيم الخليل. اما سمعت قول الله عز وجل: " وإمرأته قائمة"؟

و كان الحسن رضي الله عند بقال فجعل يأخذ من هذه السلة تينة فيأكلها ومن السلة الاخرى فستقة فيأكلها فقال له هشام ما بدا لك يا ابا سعد في الورع؟ فقال له: " يا لكع ! اتل علي آية الاكل ." فتلاها " ولا على انفسكم ان تأكلوا من بيوتكم." واستشهدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دخل دار بربرة رضي الله عنها وكانت غائبة عن بيتها فأكل من طعامها وهي غائبة.

استمر هذا النهج في الاستشهاد بالذكر اللحكيم والسنة النبوية الشريفة في شتى ملابسات الشرب والاكل والطعام الى يومنا هذا، سمعنا الكثير ولما نزل.

شوهد الظريف المصري المعروف، امام العبد وهو يأكل في شهر رمضان المبارك. فأنبوه على سوء فعلته. قالوا له، يا إمام تفطر امام الناس وانت في شهر رمضان؟ فأجابهم قائلا: " انا من حزب فاطر السموات والارض!"

=================

(٩)

الظريف والسمكة

كثيرا ما لاحظت ان الطرائف الجوعية، سواء اوردت شعرا ام نثرا، كثيرا ما ترتبط بأكلات السمك. لابد ان تكون لذلك دلالته. ومن ذلك ان الأنكليز يصفون أي شيء ينم عن المكر بأنه سمكي fishy. ويتردد السمك في كثير من امثلتهم الشعبية، كما يتردد ذكره ايضا في العديد من امثلتنا الشعبية ومنها قولنا " مثل السمك مأكول ومذموم." وقد كان من اظرف ما سمعته في هذا الصدد قصيدة صديقي زاهد محمد زهدي رحمه الله عن اكلة السمك المعروفة بالصيادية. وللعراقيين طرائف كثيرة ترتبط بأكلة السمك المسقوف. ومنها قصة قصيرة كتبتها عن الظريف البغدادي، او بالأحرى الأعظمي،، شعوبي ووليمته من المسقوف. وقد اورد الكثير من ذلك احمد محمد الحوفي في كتابه الموسوعي القيم " الفكاهة في الأدب". ومنها حكاية غندر الذي جاء لبيته بسمك وطلب من امرأته ان تطبخه وذهب لينام. وفي نومه اكل الأهل كل ما جاء به وطبخوه ثم لطخوه يده بالسمك. وعندما استفاق سألهم عنه فقالوا لقد اكلته. قال كيف؟ قالوا شم يدك. ففعل فاشتم رائحة السمك فقال: " صدقتم ولكنني ما شبعت!"

وهي حكاية عجيبة ان يدفع الجوع امرأة لتحتال على زوجها فتأكل ما جاء به وتحرمه منه. تنازع البقاء!

كذا كان الحال مع صاحبنا اشعب الطماع في طمعه بالسمك. جاء في العقد الفريد انه شاهد جماعة من اهل المدينة منغمسين في مأدبة سمك فسلم عليهم واستأذنهم بمشاركتهم. فقال احدهم لأصحابه، إن من عادة اشعب ان يبسط يده الى احسن الطعام فاجعلوا الحيتان الكبيرة بعيدة عنه، ليأكل من صغار السمك. ففعلوا. فلما انضم اليهم سألوه: كيف رأيك في الحيتان؟ فقال إن لي عليها حقدا شديدا لأن ابي مات في البحر واكلته الحيتان. قالوا له: هلم خذ بثأرك منها. فجلس ومد يده الى حوت صغير، ثم وضعه عند اذنه، وقد نظر الى الصفحة التي فيها الحيتان الكبار في ركن المائدة وقال: " اتدرون ما يقول هذا الحوت الصغير؟" قالوا لا. قال إنه يقول: "إنه لم يحضر موت ابي. ولا ادركه، لأن سنه يصغر عن ذلك." وقال لي: عليك بتلك الحيتان الكبار التي في ركن المائدة، فهي التي ادركت اباك واكلته."

و في مناسبة وحكاية سمكية اخرى قيل انه فاجأ بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهمكين في وقعة من السمك اللذيذ. فسألهم ماذا تأكلون؟ حاولوا تفادي مشاركته فأجابوه قائلين: ": سمكا مسموما." فشمر عن يمناه وانقض على الطبق وهو يقول: " بعد فقد صحابة رسول الله، لا تحلو الحياة لأحد." فجلس ومد يديه والتهم ما كان على الطبق من السمك.

و لكن نهمة اشعب لا تتوقف بالسمك فقط. فقد ورد في فوات الوفيات انه افطر في رمضان مع زياد بن عبد الله الحارثي. فجاؤا بمضيرة، وهي اكلة لحم مطبوخ باللبن الحامض، فقال للخادم ضعها بين يدي فوضعها فأمعن فيها اشعب والحارثي ينظر ويعاين، فلما فرغوا من الأكل قال المضيف: " ما اظن لأهل السجن اماما يصلي بهم في هذا الشهر، فليصل بهم اشعب." فأجابه هذا قائلا: " اصلحك الله، واحلف بالطلاق الا اذوق مضيرة بعد اليوم ." فاستغرق زياد بن عبد الله بالضحك .

================

(١٠)

عنصرية اقليمية

كما ذكرت آنفا، كثيرا ما لجأت الأغلبية الى الصاق تهمة البخل ببعض الاقليات. رويت منها كيف دأب البغداديون على التفكه بالنكات والتقليعات على اهل الموصل وبخل المصالوة. في مصر حذا حذو ذلك الظرفاء في التنكيت على بخل الرشايدة، سكان مدينة الرشيد. يقولون انك اذا ذهبت في زيارة او مهمة الى هذه المدينة وشاء سوء حظك ان تلتقي بأحد اصدقائك من سكانها بادرك بالقول: " والله كم كان بودي ان ادعوك لتناول العشاء معا، انا وانت، لو لا اني اعرف كثرة اشغالك ما تسمح لك تشرفني بزيارتك."

تلتقي بصديق آخر صدفة في السوق فيبادرك بسوآل البخلاء التقليدي: " إمتى ح ترجع لبلدك ؟"

و يروي الظرفاء حكاية الرشايدي الذي غامر وقرر الا يمشي على رجله بل يركب الاوتوبيس. اشترى نصف بطاقة وركب. جاء المفتش يسأل عن التذاكر فعرضها عليه. فقال له: " ولكن يا افندم التذكرة دي نص تذكرة للصغار. فأجابه قائلا: " ما انا اصلي ركبت الاوتوبيس لما كنت صغير!"

قلما يوجد بلد عربي لم تظهر فيه امثال هذه النكات العنصرية او الاقليمية. في فلسطين اعتاد القوم على روايتها بحق الخلايلة (سكان مدينة الخليل) واهل بيت دراس. قالوا انك عندما تزور احدا من سكان

هذه البلدة يرحب بك ويقول: تفضل اجلس ،اجلس. خليني اعمل لك صحن سلطة نتغدى بيها انا وانت."

النكتة في الحقيقة لا تصور البخل بقدر ما تصور الفقر الذي عاشه ويعيشه الفلسطينيون. ها هو رجل لا يملك في بيته غير بضعة اوراق من الخس وكم حبة بندورة.

و الى الشرق من فلسطين، يسخر الاردنيون من اهل بلدة الصريح ويتهمونهم بالبخل والحرص. يقولون ان الحافلات تنقل الركاب من اربد الى الصريح وبعدها الى الحصن التي تبعد عنها ببضعة اميال. ولكن ادارة الباصات تتقاضى اجرة واحدة بالسفر لأي من البلدتين رغم اختلاف المسافة. اشتكى صرايحي من هذا الغبن. وعندما ركب الحافلة ظل راكبا فيها حتى تجاوزت بلدته الصريح ووصلت الحصن فنزل بعد ان استوفى كامل حقوق التذكرة ثم عاد ماشيا على قدميه الى بلدته حاملا كل عفشه ومتاعه على كتفيه، ولكنه سعيدا باستيفاء كامل حقوق التذكرة!

المعتاد في نكات البخل ان تنطوي على براعة ولوذعية في الحرص والطمع كما سنجد في ما يلي، ولكن هذه النكتة تنطوي على سذاجة وغباء بالاضافة الى الحرص والبخل. وهو ما لصقه السوريون دوما بأهل حمص حيث تمتزج سذاجة الحمامصة الشهيرة بالبخل والطمع. ولنا في كل ذلك عود محمود انشاء الله.

الاعرابي وجوعياته :

نجدعلى هامش ما قلته بصدد الروح العنصرية والاقليمية في النكات الجوعية أن من ابرز ممارسات ذلك التنكيت ما جاء على حساب اهل البادية، او كما يرد ذكرهم في الادب العربي بصيغة " الاعرابي". يعاني بالطبع اهل البادية بصورة خاصة من نكبات المجاعات والقحط والمحل. يقضون عمرهم بحثا عن اي عشب او حفنة ماء. وكما نتوقع، ترتبت على ذلك طرافات وحكايات كثيرة يتندر بها اهل الحواضر.

ينبهر البدوي عندما يدخل المدينة ويرى الوفرة فيها. التقى احدهم بحضري سمين بدين فوصفه قائلا: " ما اراك غير قطيفة من نسج اضراسك!"

وأستضاف اعرابي زائرا من اهل المدن واولمه على اكلة من المرق واللحم فسأله الحضري عما يسمون هذه الاكلة فقال له نسميها بالسخين فقال له، وماذا تسمونها عندما تبرد؟ أجابه قائلا: " وهل نتركها حتى تبرد؟"

و حاول اعرابي ان يتمدن فتناول الملعقة واخذ يأكل بها كما فعل مضيفه فأكتوى فمه بالأكل الحار فقال :" ابعدني الله إن حكمت على فمي غير يدي، فإنها رائد حق ونذير صدق. " ورمى بالملعقة جانبا وانشب يديه بالطعام. وهو في الحقيقة ما لاحظته في الكثير من المبعوثين، بل والدبلوماسيين العرب الذين لم يعتادوا على استعمال ادوات الطعام.

و على نهج ذلك، جلس اعرابي في مأدبة امير ضمت صحنا من الفالوذج. وكان الاعرابي قد ابتلع كل ما على الخوان من الطعام. فحذره الأمير الا يمد يده الى الفالوذج. "إن اكلت من هذا خرزت رأسك." نظر الاعرابي

الى الطبق الشهي فلم يستطع مقاومة إغرائه. فمد يده اخيرا اليه وقال:" اوصيك بصبيتي خيرا." والتهم ما في الصحن من الحلوى اللذيذة.

و جاء في "عيون الأخبار" ان اعرابيا دخل المسجد فيما كان الإمام يخطب بالناس. لم يفهم من كلامه شيئا فسأل من كان بجانبه عما كان يتكلم به. فأجابه انه يقول: "إن الاعراب ما ان يأكلوا حتى يأخذوا معهم شيئا من الطعام." وهو ما يفعله الكثير من مثقفي زماننا هذا. فمشى الاعرابي نحو المنبر وقاطع الخطيب قائلا: " يا هذا. إن الذين يفعلون ذلك هم من سفهائنا."

بيد ان الأدب العربي كثيرا ما اثنى على ذكاء الاعراب وفطنتهم. ومن ذلك ان اعرابيا زار حضريا وكان للحضري امرأة وابنان وبنتان. طبخوا له دجاجة دفع الحضري بها لضيفه ليسخر منه فقال :اقسمها بيننا. فأخذ رأسها واعطاه للمضيف قائلا: الرأس للرئيس. ثم قطع الجناحين واعطاهما للولدين. " ابناك جناحان لك فلهما الجناحان." ثم قطع الساقين واعطاهما للبنتين ." بنتاك ساقاك. فالساقان لهما." ثم قطع

العجز واعطاه للمرأة. " العجز للعجوز." ثم اخذ الباقي لنفسه وقال: " الزور للزائر."

يمضي صاحب كتاب الاذكياء فيروي كيف ان الحضري حاول ان ينتقم من ضيفه في اليوم التالي في وليمة اخرى من الدجاج فلم يفلح وفاز البدوي بحصة الاسد منها.

=================

(١١)

للشحاذين ايضا ظرفهم

الشحاذون الذين يملأون شوارع المدينة العربية وازقتها ولا ينقطع طرقهم على ابواب ساكنيها يجسمون خير تجسيم حالة الفقرو الجوع والبطالة التي يعيشها الكثير من شعوبنا. ومن هذا النمط من حياة الذل والحاجة تطور الكثير من الظرف الأدبي. وقف سائل على باب احد العوائل يستجدي صدقة. فأجابه صاحب البيت، ليس هناك احد. فأجابه المكدي: انت احد لو جعل الله فيك شيئا من البركة.

و طرق آخر باب احد البيوت يستجدي ويقول: صدقة لله، فأنا جائع. اجابه صاحب البيت :لم نخبزبعد. قال فكف من سويق. فأجابه: ليس عندنا سويق. قال فشربة من ماء فإني عطشان. قالوا ما اتانا السقا. قال فيسير من الدهن اضعه على رأسي. قالوا من اين لنا الدهن؟ فقال لهم فما قعودكم هنا يا اولاد الفاعلة؟ قوموا واستجدوا مثلي.

كثيرا ما تصبح الحوارات بين السائل والمحسن معرضا للكثير من الظرف، كما جرى بين ذلك السائل وساكن الدار. اجابه صاحب البيت: آسف. زوجتي غير موجودة. فقال الشحاذ: ما جئت طمعا في نيكة. جئت اطلب فقط كسرة خبز.

و قيل لصوفي، إن كنت في حاجة فبع جبتك. فقال إذا باع الصياد شبكته فكيف سيستطيع ان يصيد؟

الشحاذة مع الأسف والعار جزء من حياة المجتمع العربي. ومنها في الواقع تفرع الكثير من نشاطنا كطلب الرشوة من المراجع والإحسان من السلطة والتمسح بأبواب المسؤولين ومدح الشعراء والادباء لذوي الشأن والتملق اليهم.

ومن صورها ايضا المساومة التي اصبحت اسلوبا قائما للبيع والشراء في الأمم المتخلفة. ولها ايضا نكاتها وطرائفها. يحكى ان الرصافي دخل مخزن اورزدي باك في بغداد لشراء قمصان ولباسات داخلية. فلما ذكرت له البائعة الشابة ثمن ذلك اجابها قائلا:

سعر القميص وإن غال رضيت به

اما اللباس فنزليه قليلا !

لم تقتصر الشحاذة على التصدق بالأكل، بل شملت ايضا الملابس. قرأنا كيف توسل شاعر كبير كحافظ ابراهيم من جاره ان يهبه جزمة حذاء. وعلى غرار ذلك روى الرواة ان اعرابيا جاء بأبنته وزوجته الى الخليفة عمر بن الخطاب وطلب منه إكسائهما. فأجابه الخليفة مازحا: فإن لم افعل سيكون ماذا؟ فأجاب أذن يا ابا حفص لأذهبنّه. فقال فإذا ذهبت ماذا يكون؟ قال: يكون عن حالي لتسألنه. فقال عمر: متى؟ فأجاب:

" يوم تكون الأعطيات جُنة، والواقف المسؤول بينهنه، إما الى نار وإما جنة."

قال الراوي، وهنا ارتعد عمر وبكى وقال لغلامه: " يا غلام اعطه قميصي هذا لذلك اليوم. "

فأعطاه الغلام قميصا للخليفة وقال: " والله لا يملك غيره الا ما عليه"

وهذه حكاية اخرى مما تصور لنا مدى الفقر الذي عاشه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

================

(١٢)

يأكلون الميتة والجيف

جاء في صحيح البخاري ما رواه عن جابر به عبد الله. قال: " خرجنا ونحن ثلاثمائة نحمل زادنا على رقابنا ففني زادنا حتى كان الرجل منا يأكل في كل يوم تمرة. قال رجل: يا ابا عبد الله، واين كانت تقع التمرة من الرجل؟ قال لقد وجدنا فقدها حين فقدناها."

و يروي ابن الجوزي فيقول: " في سنة ٣٤٣ ذبح الاطفال واكلت الجيف... وفي سنة ٤٤٨ عم القحط فأكلت الميتة ... وفي سنة ٤٦٢ اشتد الجوع والوباء بمصر حتى اكل الناس بعضهم بعضا... وخرج وزير صاحب مصر فنزل عن بغلته فأخذها ثلاثة فأكلوها فصلبوا. فأصبح الناس لايرون غير عظامهم تحت خشبهم" الحقيقة ان ما رواه ابن الجوزي جزء يسير لسلسلة طويلة من المجاعات التي اجتاحت العالم العربي ابتداء من عهد ابي بكر الصديق. ويذكر فليب حتي ان الجزيرة العربية عانت بعد وفاة الرسول من زيادة السكان. ويرى المؤرخون الاقتصاديون، كما ذكر فرانسيس غابريلي " محمد وفتوحات الاسلام" ان السكان تكاثروا بعد الاسلام بنسبة ١٠-١٥ بالمائة في القرن ورافق ذلك تضخم نقدي وارتفاع في الاسعار. ولا ادري إن كان ذلك يعود للتوقف عن وئد البنات واستتباب الأمن والسلام وتنظيم الزواج الذي جاءت به الشريعة او الامتناع عن اكل الخنازير والحمير، او كل هذه العوامل

مجتمعة. ولكنني اعتقد ان تلك المجاعة وزيادة السكان كانتا من العوامل التي دفعت بالمسلمين الى الخروج من الجزيرة وفتح العالم، وكأنه سبحانه وتعالى سخر تلك المجاعة ليتم بها نشر الاسلام في الدنيا الواسعة. وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

ورد ذكر الجوع والتحذير منه عدة مرات في القرآن الكريم. وفيه جاء ذكر الأكل ١١٠ مرة وذكر الطعام ومشتقاته ٤٨ مرة. تشير الملائكة على مريم العذراء ان تهز النخلة لتساقط عليها رطبا جنيا، وتقول لها " كلي واشربي وقري عينا." الأكل نعمة واعتدنا على تسمية الخبز والطعام بالنعمة ونعمة الله. ويحذر الله تعالى آدم من ابليس لئلا يخرجهما من الجنة فيشقى ويذكره بنعمة حياته في الجنة حيث " لا تجوع فيها ولا تعرى."

و خصص ابو حيان التوحيدي عدة صفحات من كتابه "الامتاع والموآنسة" لذكر الأكل والشبع وروى عن يزيد بن ربيع ان الماء والملح هما طعام الأعراب. وقيل لأعرابي ما حد الشبع، فقال: " اما عندكم يا حاضرة فلا ادري. واما عندنا في البادية فما وجدت العين وامتدت اليه اليد ودار عليه الضرس واساغه الحلق وانتفخ به البطن واستدارت عليه الحوايا واستغاثت منه المعدة وتقوست منه الاضلاع والتوت عليه المصارين وخيف منه الموت! "

من هذه الخلفية الاقتصادية والاجتماعية ورثنا كل هذه الثروة من ظرافات الجوعيات ونكات البخلاء والثقلاء والطفيليين. الأدب العربي مليء بحكايات التخمة والذين تراهنوا على الاكل فأكلوا حتى اشرفوا على الموت.

اعترض بعض الزملاء على ما قلته بشأن قيام المصريين بأكل اولادهم وصغارهم في ايام المجاعات التي كثيرا ما اجتاحت وادي النيل في القرون الوسطى. كيف يقوم المسلم بأكل ابنه وابنته والقرآن الكريم ينهى حتى عن وئد البنات؟ الحقيقة هي انني ايضا دهشت لدى قراءة ذلك في التراث. ولكنني وجدت ابا حيان التوحيدي يورد ذلك، وانا اكن احتراما كبيرا لهذا الكاتب البارع والموضوعي. ولكن ما العجب في ذلك؟ ففي هذه الأيام نجد الناس في العراق، هذه الدولة الغنية بنفطها وزراعتها وثقافتها ومياهها وعلمائها اخذوا يبيعون اولادهم للأجانب درء للجوع. وجاء في الأنباء عام٢٠٠٩ أن عدد العاهرات العراقيات المسجلات في دمشق قد بلغ ٤٥٠٠ امرأة. إذا حدث ذلك في هذا العصر المتنور والثري لبلد كالعراق، فلماذا لا نتصور اخوانهم المصريين يأكلون اولاهم في عصور اقل تنورا ورفاها؟

كان من بين القراء الافاضل الذين واضبوا على قراءة ما الكاتبه في هذا الشأن الدكتور خالد الاعظمي. وقد ايد ما قلت واضاف بأن عميد الأدب العربي، طه حسين، قد ذكر مثل ذلك. ووافاني الدكتور الأعظمي بما قاله طه حسين بهذا النص الوارد في المجلد الثالث من كتابه المهم " من تاريخ الأدب العربي":

" فكما انك لا تكاد تظفر بسنة خلت من حرب او قتال. لا تكاد تظفر بسنة خلت من جدب عام او مجاعة شاملة، يعقبها وباء مبير. ولو انا اردنا ان نحدثك عن مجاعات بغداد وازمات القاهرة، تلك التي كانت تضطر الناس الى اكل الكلاب والميتات، وإلى ان يتخذ بعضهم بعضا طعاما، والى ان يضعوا في الدروب والحارات الشباك والاشراك يتصيدون بها الأطفال

والضعفاء، ليتخذوهم شوا، لو اردنا ان نحدثك عن ذلك لروعناك، ولخفنا عليك من الفزع والهول، ما ليس من حقنا ان نغريه بك، ولا ان نزجيه اليك. فإذا اردت ان تتبين صدق ذلك فاقرأ ما كتب عبد اللطيف البغدادي، عن مصر، وانظر ما شهده من ذلك بنفسه."

يمضي عميد الأدب العربي رحمه الله فيفصل ما جاء في كتاب عبد اللطيف البغدادي الذي يرجع تاريخه الى القرن السادس للهجرة فيشير الى قصص المجاعة التي عمت مصر ايام المستنصر الفاطمي بصورة رهيبة.

الواقع ان وقائع المجاعات شاعت في اكثر البلدان العربية وكان من آخرها ما ذاقته ديار الجنوب العربي في الاربعينات من القرن العشرين. ذكرت لي السيدة دورين انغرامز التي صاحبت زوجها، المستشار البريطاني في حضرموت عندئذ فقالت انها شهدت ما علق بذهنها طيلة حياتها عندما كانت تتناول البسكويت معبين

الشاي على الطريقة الانجليزية فلاحظت طفلا اسقمه الجوع ينظر اليها بحرقة فتقدمت اليه واعطته بسكويته. رأت امه ذلك فهجمت على ابنها وانتزعت البسكويته من فمه واكلتها هي. قالت السيدة دورين كان ذلك خروجا على كل غرائز الامومة التي تجعل حتى انثى الحيوان تعطي الاسبقية لرضيعها في الأكل والدفاع ودوام البقاء والحياة

وقد حدثني السيد عبد الله بن محفوظ، من سكان تلك المنطقة، فقال ان جده كان له اولاد بعدد اصابعه، واعتاد في ايام المجاعة ان يقدم اصابعه لهم بعد الانتهاء من الأكل بيده، ليلطع كل واحد منهم إصبعا واحدا منها ويلعق ما قد علق به من دسم او زاد.

================

(١٣)

كرم رغم الهوان

سألني احد الزملاء الكرام عن حقيقة ما ذكرته عن المجاعات التي اجتاحت العالم العربي وجعلت الناس يأكلون اطفالهم. أعتذرت له عن عجزي عن التحقق عن ذلك كما هو الحال بالنسبة لمعظم وقائع تاريخنا العربي. بيد انني اضيف الى ذلك ما قرأته ايضا في ان القوم اعتادوا عندما يجتاح بلدهم القحط ان يهاجروا منه. وفي مصاعب الهجرة اعتادوا على ترك المرضى والضعفاء والمقعدين وراءهم بدون معيل ولا زاد. بيد ان احد مشاهير الكرماء من العرب اعتاد على المكوث بينهم لإسعافهم وإطعامهم، وهو والله اوج الكرم والسماحة.

نلاحظ ان من اول نتائج الفقرو الجوع والمجاعات، نشوء صفتي الكرم والبخل جنبا الى جنب. ويبدو شيء من الشذوذ في ترابط هذين النقيضين، ولكنهما نتيجتان اساسيتان للتعامل مع القحط. فأي انسان يجرؤ على اجتياز الصحراء القفراء او يعيش بين كثبانها بدون احد يغيثه عند الحاجة. وحول هذه الحاجة نسجت حكايات الكرم عن حاتم الطائي وقيس بن سعد وسواهما من مشاهير الكرماء. واعطت العرب الضيافة المكانة الأولى في فضائل المروءة فقالوا إن العجلة مذمومة الا في خمس: إطعام الضيف، ثم إيفاء الدين، فتزويج البكر، فدفن الميت، واخيرا التوبة بعد معصية.

الكرم صنو الحاجة، ويزول بإنتفائها. تجلى ذلك بأبشع صوره في حياتنا المعاصرة التي ارتبطت بالكسب والمنفعة. كثيرا ما دعتني بعض الدول العربية ككاتب وصحافي فبالغوا في إكرامي واغرقوني بالهدايا ثم توقفوا عن ذلك بعد ان اكتشفوا انني لا انفعهم بشيء. فأنا لا امدحهم ولا اعرف كيف ادبر غسيل اموالهم المسروقة وليس بين من اعرفهن من النساء غير العجائز والقبيحات من المثقفات. وكذا دأب الطامحون من فتيان وحسان فصاحبوني واغرقوني بكرمهم ووعودهن اعتقادا بأن لي مكانتي في عالم الصحافة ثم اسرعوا فهجروني حالما خيبتهم في طموحهم وتطلعاتهم.

الكرم العربي بات يلوح للكثيرين انه مجرد كذبة وخدعة. ولكنك تجد هذا الكرم الحقيقي عند الفقراء والبسطاء. كثيرا ما اتصور ان سبب فقرهم هو كرمهم وسماحة خلقهم. سمعنا الكثير من ذاك ولكن كل ما قرأته يتلاشى امام حكاية فطومة العمية التي التقيتها في نواحي المحمودية، جنوبي بغداد.

اعتدت وانا تلميذ في الجامعة على الطواف على دراجة هوائية مع صديقي ناجي بن حنانش في تلك النواحي الفقيرة من العراق. قلما اخذنا معنا اي زاد او شراب. كلما شعرنا بالعطش او الجوع، اقتربنا من بيت فلاح بسيط ونادينا: " السلام عليكم يا اهل البيت. ممكن الله يحفظكم تعطونا شوية ماي. عطشانين!" يردون التحية ويخرجون الينا بشيء من اللبن واحيانا مع شيء من التمر او الخبز. كثيرا ما دعونا للجلوس فيأتوننا بغداء كامل.

كذا فعلنا مع هذا البيت الخرب. خرجت الينا امرأة عجوز. "هلا، هلا اولادي، تفضلوا اقعدوا.." اجلستنا على حصيرة وذهبت. ذهبت واختفت لنحو نصف ساعة. تعجبنا من امرها وهممنا بالآنصراف. ولكننا سمعنا

صوت خيل تقترب. نزل رجلان وبادرا لتحيتنا وانضموا الينا. تجاذبنا الحديث معهما. حكينا لهم آخر اخبار بغداد وحكوا لنا عن مصاعب الزراعة والعيش كفلاحين. بعد قليل نادت المرأة عليهما فجاءا منها بوجبة دجاج ورز وخبز مع طاسة من اللبن الشنينة. "تفضلوا يا شباب!"

اكلنا وشبعنا ثم نادت المرأة عليهما ثانية فاستلما منها استكانات الشاي. شكرناهما وهممنا بالانصراف. قالا " يا الله نمشي سوا. انتو على حصان الحديد (تسمية الفلاحين العراقيين للدراجة االهوائية) وإحنا على خيلنا." ازددنا عجبا. اليس هذا بيتكم؟

نظروا في وجهنا ثم قالوا: " ما تعرفون؟ هذي خرابة فطومة العمية. العجوز اللي شفتوها. نادت علينا حتى نقعد نتسامر وياكم ما بين هي تحضر الأكل." فمن اصول الضيافة العربية مسامرة الضيوف، ولكنها كإمرأة لا يليق بها ان تجلس مع الرجال، فسارت نحو نصف كيلو متر لتجلب احدا من القرية يسامرنا ويشاركنا طعامنا. صعقنا لسماع ذلك. هذه العجوز الفقيرة الضريرة تذبح لنا دجاجتها وتأتي بضيوف لمسامرتنا ! وهي لا تعرفنا ولا تتوقع شيئا منا ولا تنتظر التقائنا بها ثانية قط. هممنا بدفع شيء لها. نظر في وجهي احدالرجلين ثم قال: "اعوذ بالله! ما تعملون هذا. راح تخربون عليها كل سعادتها بهذا اليوم !"

=================

(١٤)

فش اند جبس

تواصلا مع ما تكلمت فيه عن الكرم وعلاقته بالجوع والجوعيات، مررت في العاصمة البريطانية بتجربة طريفة في هذا الصدد. كنت عائدا من شمال لندن الى بيتنا في ومبلدن في الجنوب، سفرة تستغرق نحو ساعتين بالسيارة. لم اقطع نصفها بعد عندما حان موعد عشائي، وانا من المتطبعين على الالتزام الانجليزي بمواعيد الأكل، لا حبا بعاداتهم وانما رفقا بمعدتي المقروحة. قررت التوقف عند اول مطعم اصادفه، وكانت المصادفة مطعما شعبيا مختصا بالأكلة العمالية فش اند جبس(سمك وبطاطا). دخلت وطلبت ذلك. ولكنني لاحظت لوحة تقول: " نأسف. لا نقبل البطاقات الأئتمانية." وهي طريقتي المعتادة في الدفع. بادرت للإعتذار من صاحب المطعم والغاء الطلب. قلت له. " آسف ما عندي خمسة باوندات نقد لأدفع لك ثمن السمك والجبس." قلت وادرت ظهري لأنصرف لولا ان استوقفني الرجل. " كم عندك من الفلوس؟" اخرجت كل ما في جيبي ووضعته على الطاولة. لم يتجاوز نحو الثلاثة باوندات او اقل. وضعها الرجل في صندوقه دون ان يعدها.

" اجلس! حرام اتركك تخرج جائعا بسبب الفلوس. اجلس!"

أطعت وجلست واذا به يأتيني بطبق من سمكة كود كبيرة وكمية مكللة من الجبس. تبعها بطاسة مليئة بالسلطة اعدها خصيصا لي. فليس من

المعتاد اكل الفش اند جبس مع سلطة. لم انته منها الا وجائني بطبق من الحلوى واخيرا كوبا انجليزيا من الشاي والحليب. يظهر انه كان يتلمس مرضاة ربه بالتصدق على هذا الجائع من مشردي لندن وفقرائها. اكلت وشربت هنيئا مريئا وتمثلت بقول أخواننا في اليمن: " من اكرمك بالأكل اكرمه بالمأكل.". خطر لي في طريقي لمبارحة المطعم أن اشكره على معروفه وصدقته وان اسأله عن هويته. معظم بائعي الفش اند جبس في لندن من الاجانب او اللاجئين. وهكذا بدا الرجل بشنبه الكثيف وعينه السوداء وانكليزيته المكسرة.

"انا فلسطيني!"

ما ان قال ذلك حتى وضعت حقيبتي على الكرسي وانطلقنا في حديث طويل بالعربية عما كان يجري في غزة ومصيبتنا بكل هذه الانشقاقات والمنازعات في صفوف القيادات الفلسطينية.

" معلهش! بس انتو يا العراقيين مش اعقل من عندنا. إحنا اليهود والامريكان خربوا بلدنا. بس انتو خربتوا بلدكم بإيدكم!"

عدت الى البيت لأجد زوجتي تختض غضبا على تأخري. وكان الروست بيف قد برد تماما على طاولة الطعام. ما هذا التأخر؟ لِمَ لم تخابر وتقول؟ اي حسناء قد شغلتك واخرتك؟

اعتذرت لها ورويت حكاية تلك الوقعة وتلك الواقعة من الكرم العربي الاصيل. قلت لها يظهر ان تقاليد الكرم العربي ما زالت حية بيننا وحتى في هذه الغربة. قالت: " معلوم! لازم شافك بهالسترة المبهذلة وبنطلونك المهتري وتصورك واحد من الشحاذين وتصدق عليك. يمكن في يوم من الأيام، واحد من الجيران يشوفك بهالحالة ويخرج من البيت ويتصدق عليك ببنطلون جديد!"

=================

(١٥)

الظرفاء والبخلاء

ذكرنا سابقا أن من نتائج الفقر وشيوع القحط والجوع انتشار ظاهرة البخل في بعض المجتمعات. وهو امر طبيعي ومفهوم. الجوع مر. وترتبت على ذلك طرائف وحكايات ظريفة كثيرة. ولكن المجتمعات المدنية لجأت الى الصاق تهمة البخل ببعض الاقليات او بعض المدن. فمن الظواهر السايكولوجية ظاهرة الإسقاط projection وهي ان تسقط ما في نفسك من عيب على الآخرين. ألاغلبية تلصق عيوبها بالأقلية. فالعراقيون مثلا اعتادوا على لصق البخل بالمصالوة (سكان الموصل) واعتاد المصريون على لصقها بالرشايده (سكان بلد الرشيد). وفي العهد العباسي لصقها الناس بسكان خراسان. الانجليز يلصقون البخل بسكان اسكوتلندا. يقولون انك عندما تزور بيت انجليزي تفتح لك صاحبة البيت قنينة ويسكي وعندما تذهب لزيارة عائلة اسكوتلندية تفتح لك صاحبة البيت التلفزيون! وكل ذلك رغم انني وجدت من تجاربي الخاصة ان الاسكوتلنديات اكثر كرما من الانجليزيات.

تعرضت مدينة الموصل لمجاعات قاتلة في السنين الخوالي. روت لي جدتي رحمها الله ان اهل الموصل اضطروا في احدى هذه المجاعات الى اكل الكلاب والقطط. وهو بدون شك اقل قسوة وبشاعة مما فعله المصريون عندما اضطروا الى اكل اولادهم في احدى المجاعات، حسب رواية ابي

حيان التوحيدي. وكانت على اي حال وسيلة كفيلة بالسيطرة على النسل، ربما تفوق الوسيلة المتبناة حاليا بالاعتماد على العازل وحبوب المنع.

بنتيجة ذلك، تمكن المصالوة من تطوير وسائل خزن الاغذية كالاعتماد على النقانق (الباسطرمة) وكبة البرغل التي ابتدعتها جيوش الآشوريين في فتوحاتهم العسكرية وعلموا اهل الموصل عليها بعد ان نقلوا الجوع لعموم بلاد الشام ومصر.

النتيجة الاخرى هي البخل. زرتها في الخمسينات والتقيت بصديقي بطل الكرة صالح حميد. وقبل ان يسأل عن صحتي او مهمتي، سألني: " متى ترجع لأهلك؟" ضحكت وقد تجسمت امامي النكتة العراقية عن بخل المصالوة وضيافتهم. يسألون القادم دائما واولا " اش وقت ترجع لأهلك؟"

حكايات وحكايات عن بخل الموصل وحرص سكانها. بيد ان اظرفها ما سمعته عن الرجل الذي نزل ضيفا عند عائلة موصلية. بعث المضيف بإبنه ليشتري لحما للعشاء. " قل للجزار عندنا ضيف. اعطينا احسن لحم عندك". ذهب الولد الى القصاب وقال له ذلك. اجابه القصاب. " ابني انا اعطيك قطعة لحم مثل الزبد." انصرف الولد عنه وهو يقول لنفسه، اذا كان الأمر كذلك فلأذهب لبائع الزبد. اجابه هذا قائلا: " ابني انا اعطيك زبد مثل زيت الزيتون." انصرف عنه الولد وهو يقول لنفسه: " اذا كان الأمر كذلك فالأذهب واشتري شيشة زيت." قال له بائع الزيت: " ابني انا ابيعك زيت صافي مثل ماء الناقوط من الحب (الزير)." انصرف عنه وهو يقول لنفسه: اذا كان الأمر كذلك فلماذا اشتري؟ عندنا ماء ناقوط بالبيت. عاد وروى ذلك لوالده. أجابه الوالد: " ابني انت شاطر وعملت

مليح. لكن فاتك شي واحد. استهلكت قندرتك بالمشي من دكان لدكان في السوق." اجابه الولد:" لا يابا، انا لبست قندرة الضيف!"

وقد نمى تراث شعبي غني في ذم البخل والبخلاء. سمعناهم يقولون في بلاد الشام: " اذا طعماك الكريم كل وابسطه، واذا طعماك البخيل كل واحرق قلبه." وفي السعودية يقولون: " بر الكريم طبع، وبر البخيل دفع." يقول اللبنانيون: " المرة البخيلة تعلم ابنها على الحرام." وشاع في تونس قول الفائلين: " اليد الكريمة ما تموت بجوع." وقالت العرب: " من جاد بماله جل. ومن جاد بعرضه ذل."

الجاحظ وبخلاؤه:

انني اعتبر ابو عمر عثمان الجاحظ اعظم كاتب فكاهي ظهر في العالم في القرون الوسطى. ولم يتميز بكتاب كما تميز في كتابه الكبير " البخلاء". عكس هذا الكتاب الشهير لوذعية الجاحظ في وضع اصبعه على هذه الظاهرة العالمية المرتبطة بالفقر والجوع.، ظاهرة البخل وما نشأ عنها من ادب الفكاهة والسخرية.

يصب الجاظ سخريته بصورة خاصة على اهل مرو وخراسان عموما. وفيما يقوله عنهم ان بخلهم امتد حتى الى حيواناتهم. فهناك ترى الديك انفرد عن كل ديكة العالم بأنه ينهب حبة الشعير من منقار الدجاجة. فالمفروض في دنيا الاحياء ان يؤثر الذكر الأنثى على نفسه. ينطبق ذلك على الاسود والقطط ومعظم الاحياء باستثناء انسان الشرق الاوسط. فعلى المرأة عندنا ان تقف جانبا حتى يفرغ الرجل من الأكل لتأكل من

فضلاته. ينطبق ذلك ايضا على الرشوة والاختلاس. تعطي دائما الرشوة للموظف اولا قبل الموظفة. وللموظف مثل حظ موظفتين. لكل شيء اسبابه وجذوره. فمن آداب المائدة الانجليزية انك لا تمد يدك الى الموزحتى تنتهي النساء من اختيار ما يشئن من الفاكهة. وهو تقليد تمتد جذوره الى الحرب العالمية عندما شح الموز في بريطانيا. واصبح من صفات الجنتلمانية ان يترك الرجل اللموزة للمرأة. بيد ان احد الزملاء لفت نظري الى الزاوية الفرويدية من هذه المبادرة ! والله اعلم.

الحقيقة ان ملاحظة الجاحظ في هذا الشأن تكشف عن عمق تفكيره العلمي بالإضافة الى موهبته الادبية. فصفاتنا تنتج من بيئتنا والبيئة التي تصيغ سلوكنا تصيغ ايضا سلوك الاحياء الاخرى. الحمام والغزلان في بريطانيا مثلا لا تخاف من الانسان او تهرب منه كما تفعل عندنا. ونظام الصف (الكيو) الذي ابتدعه الانجليز تتبعه الحمام ايضا. وجدتها تقف على ذراعي عندما اطعمها بيدي فتنتظر دورها واحدة بعد الاخرى.

لاحظ الجاحظ ان ديكة مرو تنهب الحبة من منقار الدجاجة. قال: "فعلمت ان بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيوانهم."

بل وأطفالهم ايضا. روى عن زميل له فقال: " كنت عند شيخ من أهل مرو وصبي له صغير يلعب بين يديه. فقلت له إما عابثا او ممتحنا: اطعمني من خبزكم. قال لا تريده هو مر. فقلت: فاسقني من مائكم. قال لا تريده هو مالح. قلت هات لي من كذا وكذا. قال لا تريده، هو كذا وكذا. الى ان عددت اصنافا كثيرة. وة كل ذلك يمنعنيه ويبغضه الي. فضحك ابوه وقال: ما ذنبنا؟ هذا من علمه ما تسمع؟ يعني أن البخل طبع فيهم وفي أعراقهم وطينتهم."

يمضي الجاحظ فيروي: "يقول المروزي للزائر اذا اتاه وللجليس اذا طال جلوسه: تغديت اليوم؟ فإن قال نعم. قال لو لا انك تغديت لغديتك بغداء طيب. وإن قال لا، قال: لو كنت تغديت لسقيتك خمسة اقداح."

بيد ان من اظرف حكاياته ما جرى لجماعة من الاصحاب الخراسانيين الذين ترافقوا في منزل وقرروا الاشتراك في مصباح. ولكن واحدا منهم ابى الاشتراك في كلفة الزيت. فعمدوا الى شد عينيه بمنديل عندما يشعلون المصباح لئلا يستفيد من نوره. ثم يفكون المنديل عن عينيه عندما يطفئون المصباح.

عى غرار هذه الحكاية وردت قصة الرفاق الذين ترافقوا على الطبخ سوية. كانوا يقطعون اللحم ويأخذ كل منهم قطعته فيشدها بخيط ثم يرسلها مع الآخرين في قدر يشتركون فيه ليس حبا في المشاركة والصحبة وانما اقتصادا في الحطب والخل والثوم والتوابل. ثم يسحب كل منهم لحمته بالخيط الذي علمه ثم يقتسمون المرق. واخيرا، يجمعون الخيوط معا ويحفظونا بعد ان تكون قد تشربت بالدسم والتوابل ليعيدوا استعمالها في مرة قادمة وهي مشربة بذاك. وكلها اشتراكية من نوع اشتراكية حزب البعث.

وهذا شيء نادر فيهم فقد كانوا يفضلون الأكل فردا، وهو من شيم البخلاء. قال:"رأيت حمار منهم، زهاء خمسين رجلا، يتغدون على مباقل بحضرة قرية من الأعراب، في طريق الكوفة، وهم حجاج. فلم ار من جميع الخمسين رجلين يأكلان معا. وهم في ذلك متقاربون، يحدث بعضهم بعضا. وهذا الذي رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس."

و روى الجاحظ في ذلك فقال:

"حدثني مويس بن عمران، قال: قال رجل منهم لصاحبه- وكانا إما متزاملين وإما مترافقين- لم لا نتطاعم؟ فإن يد الله مع الجماعة. وفي الاجتماع البركة. وما زالوا يقولون: طعام الأثنين يكفي الثلاثة، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة. فقال له صاحبه: لو لا اعلم انك آكل مني لأدخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة. فلما كان الغد واعاد عليه القول، قال له: يا عبد الله معك رغيف ومعي رغيف. ولولا انك تريد الشر ما كان حرصك على مؤاكلتي. تريد الحديث والموآنسة؟ اجعل الطبق واحدا ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه. وما اشك انك اذا اكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركا. إنما كان ينبغي ان اكون اجده انا لا انت."

جوعيات في اوج بركتها!

و ينتقل الجاحظ لتصنيف انواع الآكلين، فهناك اللكام والمصاص والنفاض وو الدلاك والمقور والمغربل والمحلقم والمسوّغ والملغم والمخضر واللطاع والقطاع والنهاش والمداد والدفاع والمحول والأكيل... ولكل منهم صفته واسلوبه في التهام الطعام والشراب.

=================

(١٦)

لعنها الله من مائدة !

إنها مائدة البخيل. ما اشقى المرأة التي تقضي حياتها مع زوج بخيل وما اشقى الضيف الذي يتناول غذائه عى مائدة مضيف شحيح. كان من اروع ما قرأته من المعاناة عن تناول الغذاء مع رجل بخيل ما كتبه ابو نصر بن ابي الفتح المعروف في دنيا الشعر والشعراء بكشاجم. له اشعار كثيرة في ذم البخل والبخلاء ولكن هذا الوصف القصصي جاء من ابدعها في التصوير والتعبير:

صديق لي من ابرع الناس في البخل وافضلهم فيه وليس بذي فضل

دعاني كما يدعو الصديق صديقه فجئت كما يأتي الى مثله مثلي

فلما جلسنا للطعام رأيتـــــــــــــه يرى انه من بعض اعضائه أكلي

و يغتاض احيانا ويشتم عبده وأعلم ان الغيض والشتم من اجلي

فأقبلت استل الغذاء مخافـــــــــــــةو الحاظ عينيه رقيب على فعلي

أمد يدي ســـرا لأســـرق لقمة فيلحظني شزرا فأعبث بالبقل

الى ان جنت كفي لحتفي جناية وذلك ان الجوع اعدمني عقلي

فجرّت يدي للحين رجل دجاجة فجرّت كما جرت يدي رجلهارجلي

و قدم من بعد الطعام حلاوة فلم استطع فيها أمر ولا احلي

و قمت لو اني كنت بيّنتُ نية ربحت ثواب الصوم مع عدم الأكل

و هو ما يذكرنا بذلك الضيف الذي جلس يتناول الأكل مع رجل بخيل قال له :" دونك يا ابا عبد الله فهناك شعرة على هذه اللقمة التي تهم بأكلها." فرمى الضيف باللقمة على الخوان وقال له: " كل الوقت وانت تراقب ما آكل بحيث ترى الشعرة على اللقمة! لعنة الله علي إن اكلت معك بعد اليوم!"

من اشقى معاناة الطعام ان تشم رائحته وحياض الموت بينك وبينه، وهو ما عبر عنه شاعر آخر حين قال في صديقه ابي نوح:

ابو نوح اتيت اليه يومــــا فغداني برائحة الطعام

و قدم بيننا لحما ســــــمينا اكلناه على طبق الكلام

فلما ان رفعت يدي ســقاني كؤسا حشوها روح المدام

فكنت كمن سقى الضمآن ماء وكنت كمن تغدى في المنام

وفي كل هذه الاشعار تحذير لكل من ابتلي بالحرص والبخل وضيق اليد. لا تدعو شاعرا لبيتك ولا تفرج ماجنا على بناتك ولا تتبجح بسرقاتك. وانغماس الشعراء العرب في تسجيل كل ذلك في قصائدهم وهجائهم للبخلاء نوع في الواقع من الجوعيات التي تؤكد على معاناة الفقر والجوع اللذين عاشهما الفرد العربي منذ اقدم عصور التاريخ وما زال اكثرنا يعيش فيهما. والعجيب في الأمر ان يجري كل ذلك بين ابناء الطبقة المتوسطة المتعلمة التي نفترض فيها ان تكون موسرة، او مكتفية على الأقل.

================

(١٧)

الشعراء والبخلاء

يعيش الشعراء في عالم الجوعى والفقراء على اكراميات وعطايا الخلفاء والأمراء والوزراء وسواهم من ذوي الفضل والمال والجاه ممن اتصفوا بالجود والكرم والعطاء. والويل من لسان الشعراء لكل من مسك يديه وردهم ببخله وشحته. بجانب كل تلك القصائد الخالدة بالمديح والتعظيم والثناء، توجد روائع الهجاء والذم والتشهير بالبخل والخسة. هذا ما حصل عليه كافور الاخشيدي من المتنبي عندما مسك يده ولم يجد عليه بما تطلع اليه الشاعر. هكذا غصت عيون الادب العربي بتلك القصائد التي نالت من البخلاء.

يأتي في طليعة هذه الفصيلة ذلك الهجّاء الرائع، ابن الرومي، صاحب هذين البيتين الشهيرين بحق عيسى بن منصور:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولاخالد

فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

وفي هجائه لبني تغلب لم يجد جرير مثلبا افضل للمهاجمة من اتهامهم بالبخل :

و التغلبي اذا تنحنح ضيفه حك استه وتمثل الامثالا

وهو بيت لا يدانيه في روعة التصوير والوصف غير قول الاخطل في تجسيم بخل خصومه:

قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم قالوا لأمهم: بولي على النار

فتمسك البول بخلا ان تجود بهو لا تبول لهم الا بمقدار !

الويل للحاكم الذي يقع في رذائل البخل ويحجب عن الشعراء والادباء عطاياهم، كما حصل للملك العادل الايوبي فتصدى له شرف الدين ابن عنين كما جاء في "وفيات الأعيان" حين قال:

إن سلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيق الانفاق

هو سيف كما يقال ولكنقاطع للرسوم والارزاق

و كان ممن اشتهروا بالبخل وقطع الأرزاق عن الشعراء ابو جعفر المنصور بما اضطر الأصمعي الى ابتداع حيلة اوقع بها الخليفة ثم عاتبه على فعله في بخله على الشعراء وذكره بما كانوا يعانون من فقر وحاجة. هكذا استعر العداء بين الشعراء والبخلاء. فنطق شاعر بلسان زملائه وقال:

ارى الناس خلان الكلايم ولا ارى

بخيلا له من العالمين خليل

استمر هذا النهج في هجاء البخل والبخلاء الى ايامنا هذه. وكان من آثار ذلك ما قاله علي الجارم عندما نزل ضيفا على صديق من الاثرياء البخلاء في شهر رمضان فخرج من بيته بهذه الابيات:

اتى رمضان غير ان ثراتنا يزيدونه صوما تضيق به النفس

يصومون صوم المسلمين نهارهوصوم النصارى حين تغرب الشمس

و حاول عبد الحميد الديب ان يحظى عبثا بقدح من اللبن بالنسيئة من السيد المالكي، بائع اللبن في القاهرة وفشل، فشهر به بهذه الابيات:

بريء منك مولانا ابن مالك رماك الله في شر المهالك

لبانك كله سم زعاف ومن غش البرية رأسمالك

فويلك من رجال الحي طراو نسوته اذا علموا بذلك !

وهي ابيات تذكرني بما قاله معروف الرصافي في فقره وشقائه بحق العطار الذي رفض ان يبيعه اي شيء بالنسيئة بعد عجز الشاعر عن تسديد ديونه المتراكمة لدى العطار:

عجبا لأهل الاعظمية كيف لا يرضون جيرة جمعة العطار

جاورته زمنا وكان جواره في منتهى الانصاف، شر جوار

لعنها الله من جيرة! إنها جيرة ومجاورة البخيل ومائدته ومعايشته. ما اشقى المرأة التي تقضي حياتها مع زوج بخيل وما اشقى الضيف الذي يتناول غذائه عى مائدة مضيف شحيح. كان من اروع ما قرأته من المعاناة عن تناول الغذاء مع رجل بخيل ما كتبه ابو نصر بن ابي الفتح المعروف في دنيا الشعر والشعراء بكشاجم. له اشعار كثيرة في ذم البخل والبخلاء ولكن هذا الوصف القصصي جاء من ابدعها في التصوير والتعبير:

صديق لي من ابرع الناس في البخل وافضلهم فيه وليس بذي فضل

دعاني كما يدعو الصديق صديقه فجئت كما يأتي الى مثله مثلي

فلما جلسنا للطعام رأيتـــــــــــــــه يرى انه من بعض اعضائه أكلي

و يغتاض احيانا ويشتم عبده وأعلم ان الغيض والشتم من اجلي

فأقبلت استل الغذاء مخافـــــــــة و الحاظ عينيه رقيب على فعلي
أمد يدي ســـرا لأســـرق لقمة فيلحظني شزرا فأعبث بالبقل
الى ان جنت كفي لحتفي جناية وذلك ان الجوع اعدمني عقلي
فجرّت يدي للحين رجل دجاجة فجرّت كما جرت يدي رجلها رجلي
و قدم من بعد الطعام حلاوة فلم استطع فيها أمر ولا احلي
و قمت لو اني كنت بيّنتُ نية ربحت ثواب الصوم مع عدم الأكل

و هو ما يذكرنا بذلك الضيف الذي جلس يتناول الأكل مع رجل بخيل قال له :" دونك يا ابا عبد الله فهناك شعرة على هذه اللقمة التي تهم بأكلها." فرمى الضيف باللقمة على الخوان وقال له: " كل الوقت وانت تراقب ما آكل بحيث ترى الشعرة على اللقمة! لعنة الله علي إن اكلت معك بعد اليوم!"

من اشقى معاناة الطعام ان تشم رائحته وحياض الموت بينك وبينه، وهو ما عبر عنه شاعر آخر حين قال في صديقه ابي نوح:

ابو نوح اتيت اليه يومـــــا فغداني برائحة الطعام
و قدم بيننا لحما ســـــــمينا اكلناه على طبق الكلام
فلما ان رفعت يدي ســـقاني كؤسا حشوها روح المدام
فكنت كمن سقى الضمآن ماء وكنت كمن تغدى في المنام

وقد حدث ان ذكرني السيد سفيان الخزرجي عما جرى بين الشاعرين العراقيين معروف الرصافي ومحمد جميل الزهاوي. كان هذان الرائدان من رواد المدرسة العراقية المعاصرة، يكرهان بعضهما البعض كره المرارة.

سألوا الزهاوي يوما عن رأيه في امير الشعراء احمد شوقي فقال: شنوا هذا احمد شوقي؟ تلميذي معروف الرصافي يكتب شعر احسن منه!

حاول الملك فيصل الأول المصالحة بينهما فدعاهما على عادته لمائدة عشاء تقوم على الديك الرومي المحشو بالرز واللوز، طريقة العراقيين في طبخ الدواجن. فيما كانا يأكلان، اخذ الزهاوي ينبش الرز من تحت الديك ويأكل حتى سقط الطير الى جانبه فأنشد وقال: " عرف الفضل اهله فتقدما!"

بادر الرصافي الى تكملة البيت فقال: " كثر النبش تحته فتهدما!"

و كان مثالا آخر من جوعيات الشعراء رغم علو شأنهم ومقامهم. وايضا مثالا آخر على شأن المثقفين العراقيين في منازعة ومحاربة بعضهم البعض.

و الحكاية تذكرنا بما جرى مجرى الشعر الاخواني على غرار ذلك بين الشاعرين المصريين محمود نديم ومحمد الأسمر، مما اوردته آنفا.

في الجيل اللاحق من شعراء العراق المعاصرين دعى صادق الصايغ زميله الشاعر زاهد محمد لوليمة عشاء فوجد ابو عمار ان الوليمة لم تتجاوز شوربة على اسوء ما يكون وقطعة خبز يابسة، فلم يتمالك غير ان ينظم قصيدة طويلة قال فيها:

قد جئت ملهوفا الى "صادق" اجدد الود وعهد الإخاء

و لم اكن قد جئته جائعا ولم تكن لي رغبة في العشاء

لكنـــــه بالغ في جودهفأحضرالخبزوصحن الحساء

فقلت يا الله من حاتمالمال والفقر لديه ســـواء

لا تنزل القدور عن نارها في بيته في الصبح أو في المساء

و لم اكد اذوق ذاك الحساء حتى تعوذت برب السـماء
و غادرت موقعها معدتيخشية ان ينزل فيها البلاء
إذ كانت الطبخة قد انضجت في قدرها قبل حلول الشتاء
حتى غدت كالخل في طعمها واخضر منها القدر ثم الإناء
فقلت يا " صادق" اكرمتناو بارك الله بهذا السـخاء
فأحضر الشاي الذي لم يزل نطلبه فإن فيـه العزاء !

و ظل الشاعر يستمطر الشاي من الشاعر ولم يحضر حتى اشرف الليل على نهايته:

فلم اظفر به حتى اطلـت تباشير الصباح من الليالي
متى اعددت هذا الشاي قل لي واصدقني الحقيقة في المقال
فإني قد شممت له عطورا تعود به الى العُصر الخوالي

وفي كل هذه الاشعار تحذير لكل من ابتلي بالحرص والبخل وضيق اليد. لا تدعو شاعرا لبيتك ولا تفرج ماجنا على بناتك ولا تتبجح بسرقاتك. وانغماس الشعراء العرب في تسجيل كل ذلك في قصائدهم وهجائهم للبخلاء نوع في الواقع من الجوعيات التي تؤكد على معاناة الفقر والجوع اللذين عاشهما الفرد العربي منذ اقدم عصور التاريخ وما زال اكثرنا يعيش فيهما. والعجيب في الأمر ان يجري كل ذلك بين ابناء الطبقة المتوسطة المتعلمة التي نفترض فيها ان تكون موسرة، او مكتفية على الأقل.

================

(١٨)

حرص ام بخل ؟

كثيرا ما شكوت من ظاهرة الغفلة واللامبالاة والسفه الذي ابتلينا به ولمسناه مرارا في حياتنا السياسية والعائلية. وهذا ما اعطانا صنفا آخر من الفكاهة العربية الذي يجعلنا نضحك ونسخر ممن يظهر حرصا في عمله وحياته. هذا ما تتسم به معظم حكايات وطرائف الجاحظ الواردة في كتابه " البخلاء". وفيها- كما ارى- يختلط البخل بالحرص. من اشهر هذه الحكايات حكاية معاذة العنبرية.

اهداها ابن عمها اضحية، وبدلا من ان تنتعش وتفرح بالهدية رآها الشيخ مكتئبة حزينة فسألها فقالت:

" انا ارملة وليس لي قيم ولا عهد لي بتدبير لحم الاضاحي.وقد خفت ان يضيع بعض هذه الشاة ولست اعرف وضع جميع اجزائها اماكنها. وقد علمت ان الله لم يخلق فيها ولا في غيرها شيئا لا منفعة فيه. ولست اخاف من تضييع القليل الا انه يجر تضييع الكثير. اما القرن فالوجه فيه معروف، وهو ان يجعل كالخطاف فيعلق عليه كل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير. واما المصران فإنه لأوتار المندفة، وبنا الى ذلك اعظم الحاجة، واما قحف الرأس وسائر العظام فيكسر بعد ان يعرق. ثم يطبخ فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام والعصيدة. ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها. فلم ير الناس وقودا اصفى ولا احسن. وهي اسرع

لأنضاج القدر لقلة ما يخالطها من الدخان. واما الأهاب فالجلد نفسه جراب وللصوف وجوه لا تدفع. واما الفرث والبعر فحطب اذا جفف عجيب. بقي علينا الانتفاع بالدم. وقد علمت ان الله عز وجل لم يحرم من الدم المسفوح الا اكله وشربه. وإن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع. "

ثم تمضي المرأة فتذكر للشيخ ان هذا كان سر اكتئابها، فلم تجد طريقا للاستفادة من الدم. " فصار كية في قلبي وقذى في عيني وهما يعاودني." ولكنها سرعان ما ابتسمت وزال الهم عنها. تذكرت ان الدم الحار ينفع في تقوية القدور الشامية اذا لطخت به.

قال الشيخ: " لقيتها بعد ستة اشهر، فقلت لها كيف كان قديد تلك الشاة؟" فقالت: " بأبي انت. لم يجيء وقت القديد بعد. لنا في الشحم والالية والجنوب والعظم المعروق وغير ذلك معاش. ولكل شيء إبان."

قرأت ذلك فقلت لنفسي ما اجدر بمدارسنا تعليم ذلك النص للأولاد. على ما قالته هذه المرأة البسيطة يقوم كل كيان الصناعة والتجارة الحديثة. لم يخلق الله تعالى شيئا بدون غرض وفائدة. يا ليت نسائنا تعلمن نتفة صغيرة من حكمة هذه الارملة العنبرية فلا يملأن ارصفة شوارع مدننا بالفائض من الطعام والحاجيات.

نقول في العراق اذا صادف البدوي ارضا صخرية صلبة نزع خفه الجلدي الأحمر اللون ومشى عليها حافيا وهو يقول:" بي ولا بالأحمري." وصارت كلمته مثلا على الحرص. وعلى غرارها يقول الجاحظ ان المروزيين لا يلبسون خفافهم الى ان يذهب النبق اليابس حرصا على خفافهم من نوى النبق في الطرق.

و لكل كلمة من كل مقالة فائدة ومنفعة وإبان، هكذا على الأقل نفترض وإن كنت اشك فيه. بيد ان لي كآبتي ايضا مثل كآبة هذه المرأة في حيرتي وحيرتها. فأنا حائر بشأن حكامنا. لا اعرف كيف يستفاد منهم وما جدوى وجودهم، فهم ليس كالقرن لنعلق عليهم كل ما خيف عليه من النمل والفأر ولا هم كالمصارين لنعمل منهم وتر للمندفة وجماجمهم فارغة لا مخ فيها لنطبخ منه العصيدة او الإدام.

=================

(١٩)

الشاعر يشحذ

لئن اوغل الشعراء في ذم البخلاء، فأن كثيرا من نجوم الشعر العربي قد كانوا في الحقيقة في مقدمة البخلاء. اذكر منهم المتنبي ومحمد مهدي الجواهري. ولكن ذلك السخط الشاعري على البخلاء ناتج من واقع الفقر الذي عاشه معظمهم. يكفينا ان نتذكر من ذلك كيف ان ذلك الشاعر الاجتماعي الجليل حافظ ابراهيم لم يملك غير ان يستجدي حذاء من جاره حامد سري ليلبسه ويحضر به حفلة عرسه. قال:

احامد كيف تنساني وبيني وبينك يا اخي صلة الجوار؟

أيشبع مصطفى الخولي وأمسيأعالج جوعتي في كسر داري

و بيتي فارغ لا شيء فيه سواي وإنني في البيت عاري

و مالي "جزمة" سوداء حتياوافيكم على قرب المزار

و مضى الشاعر ليستجدي منه الطعام ايضا :

و عندي من صحابي الآن رهطإذا اكلوا فآساد ضواري

فإن لم تبعثن اليّ حالابمائدة على متن البخار

تغطيها من الحلوى صنوفو من حمل تتبل بالبهار

فإني شاعر يخشى لســاني وسوف اريك عاقبة احتقاري

و قبل حافظ بقرون، وصف شمس الدين الموصلي في القرن الرابع عشر الميلادي بهذه الابيات المأساوية احوال معيشته وبيته الذي لم يتسع صغرا حتى للرقود والامتداد،:

اصبحت افقر من يروح ويغتديها في يدي من فاقة الا يدي

في منزل لم يحو غيري قاعدا إذا رقدت رقدت غير ممد

لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ومخدة كانت لأم المهتدي

ملقى على طراحة في حشوها قمل كمثل السمسم المتبدد

والفأر تركض كالخيول تسابقت من كل جرداء الأديم واجرد

هذا ولي ثوب تراه مرقعـــــامن كل لون مثل ريش الهدهد

و راح الأمام البو صيري يستجدي الحكام بإسم شعراء عصره فوجه كلماته لوزير الدولة يستعطفه فيقول:

يا ايها المولى الوزير الذي ايامه طائعـــة امره

اليك نشـــكو حالنا إننا حاشاك من قوم اولي عسره

صاموا مع الناس ولكنهم كانوا لمن ابصرهم عبره

إن شربوا فالبئر زير لهم ما برحت والشربة الجره

لهم من الخبيز مســلوقة في كل يوم تشبه النشره

اقول مهما اجتمعوا حولهاتنزهوا في الماء والخضره

و اقبل العيد وما عندهم قمح ولا خبز ولا فطره

فأرحمهم إن عاينوا كعكة في كف طفل او رأوا تمره

مواصل لحديثنا هذا عن الشعراء وسخطهم على البخلاء واستجذائهم من ؤلي الترف والمال، نستذكر ما قاله ابو نوآس عندما جلس مع صحب من جماعته في دار ابي مالك المضري فوجدوا زق الخمر الخزفي المعهود ينتظرهم ولكن دون ما يأكلون من مزة او زاد، وقد اشغلهم المضيف بالموسيقى والطرب وعض النظر عن الطعام، فخرج ابو نوآس يشهر به:

قل لأبي مالك فتى مضر

مقال لا مفحم ولا حصـــر

جئناك في ميت تكفنه

ليس من الجن لا، ولا البشر

بل هو ميت سلاحه خزف

والجسم فان والروح من عكر

ليس لنا ما به نكفنـــــــه

فكفن الميت يا اخا مضـــر

و اعجل فقد مات فاعلمن ضحا

و نحن من موته على حذر

يا لك ميتا صلاة عيشته

عليه عزف والنقر بالوتر

و جاء في ديوان ابي نوآس شعر يسخر فيه من بخل رجل اسمه الفضل كان قد التقاه زائرا فقال فيه:

رأيت الفضل مكتئبا يناغي الخبز والسمكا

فأسـبل دمعه لمارآني قادمـــــا وبكا

فلما ان حلفت له بأني صائم ضحكـــــا

وهو كما نتوقع من شاعر كأبي نوآس اشتهر بالظرف والسخرية والجرأة واحب المجالس والحياة الاجتماعية الكريمة فلا يملك غير ان يضيق ذعرا بالمضيف البخيل والجليس الرذيل والخوان القليل فأكثر من سخطه عليهم كما فعل بحق اسماعيل بن صليح، كاتب الخليفة الأمين الذي امعن على ما يظهر بمكاسرة العرق بالماء !فقال فيه وفي بخله:

خبز اسماعيل كالوشـــي اذا ما انشق يرفى

إن رفّـــاك هذاحذق الأمة كفـــــا

عجبا من اثر الصنـــعة فيه كيف تخفى

احكم الصنعة حتى لا يرى مطعن إشفى

وله في الماء ايضا فطنة ابدع ظرفا

يمزج المالح بالعذب لكي يزداد ضعفا

وهو لا يشرب منه مثلما يشرب صرفا

=================

(٢٠)

بيوت في ابيات

الضنك الذي عاشه كل من ابتلى بالفكر والشعر والفن ظاهرة عالمية ولكنه يأخذ في عالمنا العربي شكلا مشينا واليما حقا، نلمسه في البيوت التي قضى فيها اكثرهم حياتهم وانجزوا اعمالهم. يأتي في المقدمة شاعر العراق معروف الرصافي الذي قضى شرخا طويلا من حياته في مسكن حقير بجوار المبغى العام (الكلجية) في بغداد وكانت له باب مفتوحة الى المبغى فأخذت العاهرات تستعملنه في المرور الى شارع الرشيد. زار الرصافي القصر المنيف لأحمد شوقي في القاهرة فشدهه وعاد ليقول لأصحابه: لا عجب في ان ينظم هذا الشاعر كل هذه القصائد الرقيقة وهو يسكن منعما بهذا القصر الترف.

و لكن شاعرا مصريا آخر لم يكن على مثل هذا الحظ. بدأ الشاعر ابو حفصة جمال الدين الجزار حياته في الجزارة قبل ان ينتقل الى الشعر. ولكن نصيبه منه لم يكن افضل من نصيبه كجزار فلم يرغير ان يعود لمهنته الاصلية في اواخر عمره. على الأقل يستطيع كقصاب ان يشم رائحة اللحم والشحم. وصف بيته في كلتا الحالتين بهذه الابيات:

و دار خراب بها قد نزلتو لكن نزلت الى السابعة

طريق من الطرق مسلوكة محجتها للورى شاسعة

فلا فرق ما بين اني اكونبها او اكون على القارعة

تساورها هفوات النسيمفتصغي بلا اذن ســامعة

واخشى بها ان اقيم الصلاةفتسجد حيطانها الراكعة

أذا ما قرأت " اذا زلزلت"خشيت بأن تقرأ " الواقعة"

وقد روي عن هذا الجزار الشاعر انه لمح صديقا يقصد بيته، هرب من الدار تفاديا للحرج. ويظهر ان الدار لم يكن لها اي باب، او كان لها باب ولم يكن فيها اي قفل. فدخل الضيف وراح يبحث عن اي شيء يأكله. فخرج الى السوق وابتاع طعاما وعاد لبيت الشاعر. اكل وترك شيئا من الطعام مع بطاقة بليغة قال فيها:

يا ايها الهارب من بيته وخارجا منــه على خوف

ضيفك قد جاء بها تشتهيفعد وكن ضيفا على الضيف

و عند رجوع ابو حفصة وجد كل هذا المتبقي من فضلات الطعام. وقرأ الوريقة فكتب تحتها :

كل من طعام انت اعددتهو اترك لنا الباقي على الرف

و غادر الدار فكم سائنيأن التقي فيــه مع الضيــف !

و ذهب شاعر ليبتاع غلاما يخدمه فسأل البائع عنه فقال له إنه خير غلام. عيبه الوحيد انه يبول في فراشه. فقال له الشاعر: إن وجد فراشا في بيتي فليبل فيه!

و اوجز شاعر آخر وصف حالته المعيشية بهذه الكلمات:

يا رب اني قاعد كما ترى وزوجتي قاعدة كما ترى

والبطن مني جائع كما ترى فما ترى ياربنا فيما ترى؟

=================

(٢١)

للطاوة نخيرها وللبطون شخيرها

الشعراء يلازمون المطربين والمطربون يلازمون الشعراء. كذا كان الحال مع محمد عبد الوهاب واحمد شوقي، وام كلثوم واحمد رامي. بيد ان مغنيا دعى شاعرا الى بيته فغناه وعزف له طوال النهار ولم يطعمه بشيء. ومر النهار فالتفت المطرب للشاعر وقال، اي صوت آخر تريدني ان اسمعك، فقال: صوت المقلاة.

و كان هذا ما شعربه محمود غنيم اذي اشتهر بهجائه المازح ولاسيما عندما يتعلق الموضوع بالجوع والأكل. كان في زيارة لصديقه الشاعر الآخر محمود الخفيف

و أبطأ هذا في احضار الطعام حتى اهاج قريحة الغنيم فأنشد وقال بتورية ظريفة في الاسم:

ايها الشاعر جعنا هات لحما ورغيفا

و اسقنا شايا ثقيلا لعن الله " الخفيفا!"

وفي مناسبة اخرى هاجم صديقا شاعرا آخر، محمد الأسمر، متهما اياه بالبخل:

صم اذا ما الضيف جاءكو امنح الضيف عشائك

و اجعل الصوف غطاءالضيـــف والسقف غطائك

لا تصن زادك في الشورى وفي المريخ مائك

يا صديقي قد فحصناك فكان البخل دائك

خذ نقيع الجود واشربـــــــــــه تجد فيــه دوائك

انت بالبخل مريضنســـــأل الله شفائك

ما ان وصلت هذه الابيات مسامع محمد الأسمر حتى انبرى ليرد عن مطبخه تهمة البخل متحديا صديقه بأبيات اخوانية ظريفة من ذات الوزن والقافية:

يا صديقي انت في شعـــــــــرك لم تلبس ردائك

يا كريم العصر ما اجمـــــــــل في الجود ادعائك

شد ما ابقيت شيطا ن قوافيك ورائك

قد عرفناك صغيرا وتبينا ســــخائك

فاحمد الله على الستـــــــــــر ولا تكشـف غطائك

صرت "محمودا" جديدابعد ما داويت دائك

فأطال الله للجو د الكلامي بقائك

و بالأمس قال شاعر في رجل مسرف في بخله وحرصه :

لو عبر البحر بأمواجه في ليلــة مظلمة باردة

و كفه مملوءة خردلا ما سقطت من كفه واحدة!

و من طرائف ما قاله الشعراء هذان البيتان في وصف بخيل اسمه داود:

مطبخ داود في نظافته اشبه شيء بعرش بلقيس

ثياب طباخه اذا اتسختانقى بياضا من القراطيس

سمعنا الكثير عما اوحت به القلوب من شعر ولكن للبطون مقالاتها ايضا. فما ينزعج الشاعر كما ينزعج عندما يخف لوليمة واعدة ويخرج

بمعدة خاوية. وكان ذلك ما قاله احدهم بعد خروجه من حفلة عرس لئيمة لصديقه سليمان:

مات في عرس سليمان من الجوع جماعة

مات اقوام، وقـــوم عُلموا فيه القناعـة

لم يكن ذلك عرســا إنما كان مجاعـة !

و جلس شاعر آخر في ضيافة احد اصحابه حتى الم به الجوع وصاحبه يتلو مقاطع من المصحف الشريف متباهيا بحسن صوته وإجادته التجويد والتلاوة، فما كان من الشاعر غير ان انشده هذين البيتين:

لخبز يا اخيّ عليه لحم احب الي من حسن القران

تظل تدهده القرآن حوليكأني من عفاريت الزمان

عانى شاعر من تجربة جوعية مشابهة ولكن من سقيم الكلام لا بليغه فخرج يندب حظه ويصف محنته مع مضيف بخيل:

ابو نوح اتيت اليه يوما فغداني برائحة الطعام

و قدّم بيننا لحما سمينا اكلناه على طبق الكلام

فلما ان رفعت يدي سقاني كؤسا حشوها ريح المدام

فكنت كمن سقى الضمآن ماء وكنت كمن تغدى في المنام

و في كل ذلك عبرة لمن يدعو شاعرا لبيته ولا يحسن اشتضافته .

و جاء في محاضرات الأدباء ان اصحاب محمد بن الجهم قالوا له يوما: نخشى ان نقعد عندك فوق مقدار رغبتك بمصاحبتنا. اذا حصل ذلك فإعطنا علامة نعرف منها انك قد بدأت تستثقل وجودنا وتتمنى خروجنا

لنخرج. فقال خير علامة لذلك ان تسمعونني انادي على غلامي واقول: يا غلام هات الغداء.

استضاف نفر من الرقاشيين ابا نوآس وكانت وليمة شحيحة فوقعوا بحد لسانه. خرج منهم ليدون هذه الابيات:

رأيت قدور الناس سودا من الطلاو قدر الرقاشيين زهراء كالبدر

يضيق بحيزوم البعوضة صدرهاويخرج ما فيهاعلى قلامة الظفر

إذا ما تنادوا للرحيل سـعى بها امامه الحولي من ولد الذر

و قال شاعر آخر يذكرنا بما قاله زاهد محمد بحق وليمة صاحبه صادق الصايغ :

أتانا بخبز له حامــضكمثل الدراهم في رقته

اذا ما تنفس حول الخوانتطاير في البيت من خفته

=================

(٢٢)

من بخلاء هذا الزمان

ذكرت الكثيرعن بخلاء الأمس. ولكن ماذا عن بخلاء اليوم؟ هل اختفوا وانصلحت امورنا واصبحنا جميعا غارقين بالكرم؟ لا ارى شيئا من ذلك والفقراء والجياع يحيطون بنا من كل صوب.

ثلاثة من بخلاء هذا الزمان خلدت ذكراهم في نفسي. وبالطبع كان اولهم استاذا عالي الجناب. كثيرا ما التقيت به في المؤتمرات الفكرية. لاحظت انه كان يأكل أكل الذئاب الجائعة. يبدأ بالسمك ثم ينتقل للباميا والرز ويتبعها بالكباب والتكة، ثلاثة او اربعة اشياش كبيرة، ويثني بالمحشي والدولمة ثم يعود للرزثم يختمها بالتمر واللبن والبقلاوة. عجبت من امره فسألته عن هذا الخليط العجيب فقال يا استاذ السمك لذيذ لكن رائحته كريهة. كيف تخلص منها؟ من يقتل هذه الرائحة غير الباميا. لكن الباميا فيها ثوم. فمن يقتل ريحة الثوم غير الكباب بالكرفس. والكباب دهين. فمن يقتل دهنه غير التمر. قلت له يا دكتور يعني شنو؟ معدتك ميدان معركة ستالينغراد، قتل ومقتول بالجملة؟ ضحكنا ولكنني لاحظت ان الدكتور لم يكن سمينا قط رغم كل هذا الأكل. فسألته. قال لا تخاف يا خويه ابو نايل. انا مثل الجمل اخزن هذا الأكل في سنامي واقضي ثلاثة ايام لا آكل شيئا بعده.

وهذا ما اكتشفت. إنه قلما يأكل في بيته. يأكل في هذه المؤتمرات ويخزن الأكل الفكري للمؤتمر التالي.

غير انه والحق يقال لم يبز في بخله ذلك الرجل الذي سمعته يقول لأبنه الصغيرو قد رآه يخرج من البيت راكضا: " ابني حسين لا تركض! لا تركض! بعدين الخبز والشاي ينزل في بطنك وتجوع."

بيد انني اعطي كأس السباق لذلك البخيل الذي دخل في مناقشة مع زميله في موسم شتاء قارس اجتاح مدينة بغداد. قال له صاحبه: يا ابو عبد الحق انا ما يهمني البرد بالخارج. مشكلتي في البيت لما انام في الليل واتدثر باللحاف واحمي نفسي من البرد واشعر بالدفو. لكن انا معدتي خربانة وتحصل منها غازات كثيرة. تخرج مني بالفساء والضراط. وكلما يحصل ذلك اضطر الى رفع اللحاف لأتخلص من الرائحة الكريهة. فيذهب الدفو ويدخل الهواء البارد. هذي مشكلتي كل ليلة. كل ساعة او نصف ساعة اضرط فأرفع اللحاف واتعرض للبرد."

صححه زميله الحكيم: لا يا حبيبي حسون، هذا مو عقل منك. ابدا مو عقل. تشيل اللحاف وتخلي هوا الضراط الحار يروح. هذا تبذير منك الله ما يرضى عليه. المبذرون اخوان الشيطان. انا افرح من يصير عندي هذا. لأن الضرطة هواها حار ويدفي ويوفر لي الكثير من النار والنفط. خلي بالك يا ابن عمي. اسمع نصيحتي وخلي بالك لما تصير عندك ضرطة احبس هواها باللحاف زين وتدفا بيها."

ويظهر ان أن ذلك كان مما ادركه احد بائعي الفجل في مدينة الموصل. كان يتجول في الطرقات وينادي على بضاعته فيقول:" راس فجل بأربع فلوس! دفي منامك بأربع فلوس!"

وهو ما يذكرنا بالمثل العراقي "يقلي البيضة بالضراط". وهو مثل ينطبق على كل كل زعمائنا الذين يحاولون تحرير فلسطين بالكلام وتثبيت الأمن في العراق بالإنتخابات.

================

(٢٣)

واها من الضيف الثقيل!

الضيف الثقيل باب من ابواب الفكاهة العربية لا اعرف نظيرا له في الآداب الاوربية، وربما ولا في آداب الآخرين. سبب تفردنا به تمسكنا بالأدب واللياقة والكرم والإحترام المفرط. هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى الفقر والجوع الذي يضطر المرء الى استغلال متطلبات الأدب والكرم واللياقة للتطفل على الآخرين الى حد الإثقال عليهم. وبالطبع الوقت عندنا ارخص من الموت ولا يعني أي شيئ او له أي ثمن. واكثرنا على أي حال عطّال بطّال. يطرق بابك فتستقبله وتستضيفه فيوفر لنفسه تكاليف التدفئة في الشتاء والتهوية في الصيف. وهكذا نمت حكايات وطرائف عديدة عن هذه الظاهرة، ظاهرة الأصدقاء والضيوف الثقلاء في لوذعياتهم ووسائل التخلص منهم.

لا يعرف الغربيون نظيرا لها لأنك لا تستطيع ان تدخل بيوتهم بدون موعد محدد وبشروطه وإطاره وتوقيته. وإذا فعلت، فليس من العيب على الاوربي ان يردك بقوله: "آسف انا ما عندي موعد معك اليوم." او آسف انا مشغول. لا تستطيع ان تفعل ذلك في بلادنا. إنها تقاليد البادية عندنا حيث تكون الخيمة مفتوحة دائما والضيف العابر منحة ونعمة. تصف الرجل الطيب والكريم بقولك باب بيته مفتوحة.

بالطبع، هذا شيء جميل في البادية حيث تستبشر بأي عابر سبيل يسامرك ويتحفك بأخباره وخبرياته وما يجري في العالم. ولكنه في الحواضر يصبح مشقة ومتاعب. وهذا هو المطب الذي اصبح مسرحا للدراما والكوميديا، وهو ما نحن بصدده في إطار فكاهات الجوع والجوعيات.

ازعج ما يكون ان يثقل المرء على مريض تعبان. وهو ما حصل. سأل العائد الثقيل مريضا على الفراش اتعبه بهذيانه وسماجته: ما تشتهي يا صاحبي، فأجابه قائلا:" ان تعود لبيتك!"

لابد ان عانى اكثرنا من مشكلة الضيف الثقيل الذي تستضيفه في بيتك ولا تدري كيف تتخلص منه بأدب. فطن رجل الى وسيلة مؤدبة لهذا الغرض. ما ان يبدأ بالتضايق من ضيفه حتى يعرض عليه خاتمه ويقول: ما رأيك يا صاحبي بخاتمي هذا؟ الا يعجبك؟" يعاين الضيف الخاتم بشوق فيرى هذه العبارة منقوشة عليه: " اثقلت فقم!"

و لكن ضيفا آخر كان في تمام الحذق. اطال البقاء في بيت صاحبه الذي لم يعرف كيف يتخلص منه. استدرجه الى باب الدار وقال له، كيف نشاطك وقدرتك على القفز؟ انا استطيع ان اقفزمن عتبة هذه الباب ثلاثة اذرع. وفعل فقفز ذلك. ثم قال للضيف ارني كم تستطيع ان تقفز انت. فقفز الى داخل البيت ذراعين. قال له المضيف " اوه! يا ابا عبد الله، انت لم تستطع غير ذراعين." فأجابه " ذراعان للداخل خير من ثلاثة اذرع للخارج!"

عاد رجل الى بيته في الموصل فسألته زوجه عما حمله للعودة بهذه السرعة بعد عشرين يوما من بيت ابن عمه في بغداد. فأجابها قائلا: انا رجل لي احساساتي وكرامتي مثل ما تعرفين. وتكفيني الإشارة الخفيفة. عدت

لبيت ابن عمي ووجدت الباب موصدة وكل شنطي وغراضي مرمية على الرصيف!"

اذا كان الشعر ديوان العرب، فمن الممكن ان نقول والثقلاء ديوان الشعراء. نستطيع ان نفهم ذلك ونحن نتصور مدى المضايقة التي يشعر بها الشاعر عندما يتطفل عليه رجل ثقيل وهو ينظم قصيدة رفيعة. لا شك ان هذا ما شعر به البهاء زهير عندما كان مريضا وعاده شخص ثقيل الدم فقال فيه:

و عائد هو سقم لكل جسم صحيح

لا بالإشارة يدري ولا الكلام الصريح

و ليس يخرج حتيتكاد تخرج روحي

و قد ترددت شكوى الشعراء والأدباء من الثقلاء في شتى الكلمات التي شاعت بيننا، كهذا البيت المعروف:

انت يا هذا ثقيل وثقيل وثقيلانت في المظهر انسان وفي الميزان فيل

و اعطى شاعر آخر صورة سينمائية بديعة لهذه البلوى فقال:

سقط الثقيل من السفينة في الدجى

فبكى عليه رفاقه وترحموا

حتى اذا طلع الصباح اتت به

نحو السفينة موجة تتقدم

قالت خذوه كما اتاني سالما

لم ابتلعه لأنه لا يهظــم!

ازعج من كل ذلك عندما يكون الثقيل شخصا قريبا للشاعر. وهو ما الم بالحطيئة عندما هجى والدته بتلك الابيات الشهيرة:

تنحي واجلسي عني بعيداا راح الله منك العالمينا

اغربيلا اذا استودعت سرا وكانونا على المتحدثينا

حياتك ما علمت حياة سوءوموتك قد يسر العالمينا

نجد في حكاية اخرى شيئا ظريفا من التورية عندما قال رجل لمطرب لم يحسن ادائه فقال له: إنك لا تعرف الثقيل الأول ولا الثقيل الثاني (وهما لحنان موسيقيان) فقال له المغني، كيف لا اعرف، وانا اعرفك واعرف اباك ايضا؟

و من طرائف ما كتبه مصطفى صادق الرافعي انه عانى من ثقيل لا ينفك من زيارته المزعجة فقال فيه:

و ثقيل بات في نقم واراني منه في نقم

قال: القاك صباح غد يا غد عجّلت بالسقم

لو يقوم الميتون غدا لتكاسلت ولم اقم

و على غرار ذلك قال علي الجارم:

تبا له من ثقيلدما وروحا وطينة

لو كان من قوم نوحلما ركبت السفينة!

و نظم علي الجندي هذه الابيات في وصف رجل اثقل عليه:

ثقيل على ارواحنا ثقل الحجرنلقبه من شؤمه زحل البشر

تغيب بشاشات المنى بحضورهو تهجر احزان النفوس اذا هجر

كأن ثلوج القطب حشو ثيابهفإن هو وافى كاد يقتلنا الخصر

وابشع من ضحك القرود حديثهو اقبح من فقر المّ على الكبر

يمن على جلّاسه بجلوسه وامتع منه ان تجالسك البقر

فيا ليته يوما احس بأنهثقيل على الروح الخفيفة فانتحر

فيا رب لا تدخل جنانك مثلهفيهرب منها الصالحون الى صقر

دخل ثقيل على مريض فأطال الجلوس. ثم سأل المريض: مم تشتكي؟ فأجابه "من قعودك عندي." وقال ابوالحسن هذيل الاشبيلي:

جليس لا يبرح العصر قاعدارمانا به الحرمان من حيثما رمى

له مقلة حولا وعين مريضة وعما قريب سـيدركه العمى

اذا ابصرت عيناي طلعته التي اموت بهاعما، ارى الموت قد دنى

==================

(٢٤)

مع الطفيلية

كما ارتبطت ظواهر البخل والكرم والضيافة والشحاذة بواقع الفقر والجوع، نشأت عنهما ظاهرة الطفيلية. الحقيقة ان الكرم نفسه نوع من الطفيلية. يأتي شخص، ربما لا تعرفه ولم تسمع به، وينزل ضيفا عليك يتوقع منك إطعامه وسقيه. وعليه يمكننا ان نقول إن سلوك الطفيلية والتطفل يمتد الى ايام الجاهلية وقبلها. بيد ان اشعب الطماع كان من اول من حولها الى مهنة وطريقة للعيش، كما سبق ان اسلفنا وروينا.

بيد ان " الطفيلية" لم تدخل اللغة كمصطلح وفكرة الا في العصر العباسي بعد ان تفاقم البون بين الأغنياء والفقراء وحمل المستضعفين والمسحوقين الى كسب لقمة عيشهم من الشحاذة والصدقات والتطفل على الحفلات والولائم والمآتم. برز منهم بصورة خاصة المدعو طفيل بن دلال وهو من بني عبد الله بن غطفان ومن اهالي مدينة الكوفة. ونسبت اليه الظاهرة بعد ان لقب بطفيل العرائس لكثرة تطفله على حفلات العرس. وكانت العرب قبل ذلك تدعو من مثله بالوارش، كما يقول صاحب محيط المحيط.

اشتهر بوصيته الى ابنه وهو على فراش الموت. قال له: اذا دخلت عرسا فلا تلتفت تلفت المريب. وتخير المجالس. فإن كان العرس كثير الزحام فأمر وأنه. ولا تنظر في عيون اهل المرأة ولا في عيون اهل الرجل ليظن

هؤلاء انك من هؤلاء. فإن كان البواب غليظا وقاحا فأبدأ به وامره وإنهه من غير ان تعنف به. وعليك بين النصيحة والإدلال."

و لعمري، كثيرا ما لاحظت سلوك بعض الطفيليين المعاصرين فيما حضرته من حفلات، وكإني بهم قد قرأوا واتبعوا نصيحة هذا الرجل. كثيرا ما تطلبت مهنة الطفيلي شيئا من خفة الدم وظرافة الكلام التي تحببه الى اهل الحفلة فيتسامحون معه ويستأنسون بحضوره. ومن ذلك كان طفيل هذا ينظم ويرتجل الشعر. وهكذا نطق بهذه الأبيات الظريفة لفائدة ابنه ومن سواه من الطفيليين:

لا تجزعن من الغريب ولا من الرجل البعيد

و ادخل كأنك طابخبيديك مغرفة الحديد

متدليا فوق الطعام تدلي الباز الصيود

لتلف ما فوق الموائد كلها لف الفهـــــود

و اطرح حيائك انما وجه الطفيلي من حديد

لا تلتفت نحو البقوللا ولا غرف الثريد

حتى اذا جاء الطعام ضربت فيه كالشديد

و عليك بالفالوذجات فأنها عين القصيد

هذا اذا حررتهم ودهوتهم هل من مزيد

و العرس لا يخلو مناللوزينج الرطب الفنيد

فإذا اتيت به محوت محاسن الجام الجديد

و تنقلن على الموائدفعل شيطان مريد

و اذا انتقلت عبثت بالكعك المجفف والقديد

يا رب انت رزقتني هذا على رغم الحسود

و اعلم اذا قبلـــت نعمت يا عبد الحميـــد

شهادة من النويري

يورد شهاب الدين النويري في كتابه المأثور "نهاية الأرب في فنون الأدب" شهادة طريفة من احد فقهاء الطفيليين، المولى الفاضل تاج الدين اليماني في تمجيد هذه المهنة الاستجدائية، الذليلة والظريفة. يقول فيها:

الحمد لله مسهل اوقات اللذات وميسرها، وناظم اسباب الخيرات ومكثرها، وجاعل اسواق الأفراح قائمة على ساق، جابرة لمن ورد اليها بأنواع الإرفاد واجناس الإرفاق. احمده على ان احالنا في منازل السادات ارفع الدرجات واحل لنا من الأطعمة الفائقة الطيبات واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمدا عبده ورسوله رب المكارم الجسام ومعدن الجسارة والإقدام، الجامع بين فضيلتي الطعان والطعام. وبعد، فإن صناعة التطفيل صناعة موهوبة، وحرفة عند الظرفاء محبوبة، لا يلبس شعارها الا كل مقدام ولا يرفع علمها الا من عد في حرفته من الأعلام، ولا يتلو اساطير شهامتها الا من ارتضع افاويق الصفاقة، ولا يهتدي لمنار علائها الا من نزع عن منكبيه رداء الرقاعة والحماقة. وكنت لا يقام سوق وليمة الا وانا الساعي اليها، ولا ترفع اعلام مأدبة الا وكنت الواقف لديها اتخذ الدروب شباكا للاصطياد وحبائل ابلغ بها لذيذ الأزدراد. فحيث عبقت روائح الأبازير من اعالي القصور وتمندلت تلك

الشوارع بزعفران البرم والقدور، القيت عصا المسير على الباب وخلبت بحسن ادبي قلب البواب، فلا دعوة الا وكنت لها دعوة، ولا وليمة ختان الا وطلعت على ارجائها مثل الجان، ولا سماط تأنيب الا وكنت اليه الساعي المنيب، ولا مجمع ضيافة الا وكنت عليه اشد آفة.، ولا عرس مشهود الا وانتظمت في سلك الشهود. فيحسن بي قول القائل:

لو طبخت قدر بمطمورة، موقدها الشام واعلى الثغور

و انت في الصين لوافيتها، يا عالم الغيب بما في القدور

نستشف من شهادته المستفيضة ان التطفل اصبح بالفعل صناعة ومهنة لمن طوى الجوع بطونهم وتفتقت بالأدب قرائحهم وطغت على حيل البواب حيلهم. والظاهر ان القوم ايضا استطابوا ادبهم وحيلهم ومقالبهم فلم يترددوا في إغداقهم بالكرم وحسن الضيافة، تماما مثلما حصل للمهرجين الكلاونس في ابلطة الملوك والأمراء الاوربيين. اصبحوا نوعا من الندامى. وهو ما عبر عنه في الواقع احد كرماء القوم، ابو روح ظفر الهروي، حين قال مرحبا بأحد الطفيليين الى مجلسه:

إن الطفيلي له حرمة زادت على حرمة ندماني

لأنه جاء ولم ادعه مبتدأ منه بإحســــــان

ما كان يعتبره العرب كرما وضيافة في إطار الكرامة تحول في العهد العباسي الى شحاذة وطفيلية في إطار المذلة والمهانة. ولكنهما امدتا الأدب العربي، وبصورة خاصة ادب الفكاهة بفصول جميلة وبليغة. قلما نجد كتابا تراثيا ككتاب الأغاني ونهاية الأرب والعقد الفريد بدون شيء منها،

بل وكرست كتب كاملة للموضوع، ككتاب الخطيب البغدادي" التطفيل وحكايات الطفيليين ونوادرهم واخبارهم"

و كذا نجد أن ظاهرة الطفيلية قد احتلت شرخا كبيرا من الأدب العربي بما خلفته من نكات وطرائف وقصائد ومقالب. من تراث هذا الأدب كثير من الأمثال التي ارتبطت بطفيل بن دلال فقيل: اوغل من طفيل، و" أطمع من طفيل". وزعموا ان طفيليا اقبل الى طعام لم يدعى اليه فقال له صاحب الطعام من دعاك الى هذا؟ فأجابه شعرا :

دعوت نفسي حين لم تدعني فالحمد لي لا لك على الدعوة

و كان ذا احسن من موعدمخلفه يدعو الى الجفوة

و كما نتوقع، سار في خطى طفيل الأعراس الكثير من الظرفاء. كان منهم بنان الطفيلي. وهو عبد الله بن عثمان المكنى بأبي الحسن والملقب ببنان. وهو من اهالي مرو، المشهورين بالبخل، قبل رحيله واستقراره في بغداد. وكان كلما استبطأ الطعام، عرض خاتمه على صاحب البيت وقد نقش عليه :" ما لكم لا تأكلون." حكي ان رجلا سأله ان يدعو له، فقال: " اللهم ارزقه صحة الجسم وكثرة الأكل، ودوام الشهوة ونقاء المعدة. وامتعه بضرس طحون ومعدة هضوم، مع السعة والدعة، والأمن والعافية."

ويظهر انه كان حريصا على تثقيف اتباعه وتدريبهم فقال لأحد منهم: اذا قعدت على مائدة وكان موضعك ضيقا فقل للذي يليك: لعلي قد ضيقت عليك.، فإنه سيتأخر الى الخلف ويقول موضعي واسع، فيتسع عليك الموضع." وطلب منه طفيلي آخر ان يعظه فقال له: " لا تصادفن من الطعام شيئا فترفع يدك عنه وتقول: " لعلي اصادف ما هو أطيب منه.

فإن هذا عجز ووهن." قال له صاحبه زدني نصيحة، فأجابه: " اذا وجدت خبزا فيه قلة، فكل الحروف، فإن كان كثيرا فكل الأوساط." قال زدني، فقال:" لا تكثر شرب الماء وانت تأكل، فإنه يصدك عن الأكل، ويمنعك من أن تستوفي." قال زدني، فقال: إذا وجدت الطعام فكل منه اكل من لم يره قط. وتزود منه زاد من لا يراه ابدا." قال زدني، فقال له: " إذا وجدت الطعام، فاجعله زادك الى الله تعالى. وإذا دعاك صديق لك، فاقعد يمنة البيت، فإنك ترى ما تحب وتسودهم في كل شيء وتسبقهم الى اكل الخير وانت اول من يغسل يديه والمنديل جاف والماء واسع، والخوان بين يديك يوضع والنبيذ اول القنينة ورأسها تشربه. والنقل منتخب يوضع بين يديك. وتكون اول من يتبخر. "

و لاحظ الهمذاني عددا من الطفيليين وقد تعلموا كل ذلك من وصايا هذا الاستاذ الخبير بالأكل فقال فيهم:

خلفتم بنانا فكم من اديبمن الغيظ عض عليكم بنانا

إذا ما النهار بدا ضوءهغدوتم خماصا ورحتم بطانا

=================

(٢٥)

لذيذ وذميم

عندما فتش المترجون عن كلمة عربية دقيقة للأصطلاح العلمي parasite لم يجدوا خيرا من كلمة " طفيلي" فالبراسايت هو الكائن الحي الذي يقتات على كائن حي آخر، كالقمل في رؤوس المعتقلين السياسيين عندنا. وكذا موقف الطفيلي الذي يعيش على معروف الآخرين. وقد ورد في الأثر ما يندد بهم في حديث للرسول صلى الله عليه وسلم: " من دخل الى دار قوم بغير اذنهم، دخل سارقا وخرج مغيرا. ومن دعي ولم يجب فقد عصى الله ورسوله." ورغم ذلك فقد فرضت الفاقة والحاجة على الكثير من الناس انتهاج هذا المسلك في الحياة ضمن سائر الرذائل التي شاعت بيننا خروجا على ما اوصى به النبي الكريم وجاء في المصحف الشريف. وقد ادعى طفيلي بغير ذلك حين قال:

نحن قوم نحب هدى رسو اللـــــــــه هديا به الصواب اصبنا

فادعنا كلما بسطت فإنا لو دعينا الى كراع اجبنا

وجدوا في التطفل وسيلة يسيرة يذوقون بها ما لا يحلمون به من اطايب العيش. عبر احد اكابر الطفيليين، عثمان بن دراج، عن ذلك بقوله:

لذة التطفيل دوميو اقيمي لا تريمي

انت تشفين غليليو تسلين همومي

سألوه ماذا تصنع اذا لم يدخلك اهل العرس؟ فقال انوح على الباب فيتطيرون فيدخلونني. لامه احد اصحابه على هذا المسلك وعرض عليه

وظيفة فرفضها وقال: " يرحمك الله، فأين لذة الجديد وطيب التنقل كل يوم الى مكان؟ واين هويناك ووظيفتك من احتفال العرس؟ واين الوانك من الوان الوليمة؟ "

لاحظ صديق له صفرة في وجهه فسأله عنها فقال: هذه من الفترة التي بين القصعتين، ومن خوفي في كل يوم من نفاذ الطعام قبل ان اشبع."

سلاح الطفيلي هو الجواب المفحم السريع عندما يتحداه صاحب الوليمة واهل العرس. ومن ذلك ان طفيليا بسكة النخع في البصرة مر بوليمة فاقتحم الدار فأنكره صاحب المنزل قائلا: " لو تأنيت او توقفت حتى يؤذن لك او يبعث اليك." فأجابه فورا: " إنما اتخذت البيوت ليدخل اليها، ووضعت الموائد ليؤكل ما عليها. وقد جاء في الأثر: صل من قطعك واعط من حرمك!

و على الفور تفتحت قريحته على شأن الطفيليين بهذه الأبيات :

كل يوم ادور في عرصة الدا...ر، اشم القتار شم الذباب

فإذا ما رأيت آثار عرس او دخانا او دعوة الأصحاب

لم اعرج دون التقحم لا ار...هب شتما ولكزة البواب

مستهينا بمن دخلت عليه غير مستأذن ولا هياب

فتراني الف بالرغم منه كل ما قدموه لف العقاب !

و تحدث طفيلي آخر ناطقا بإسم عصبة الطفيليين الأحرار فقال:

نحن قوم اذا دعينا اجبنا ومتى ننس يدعنا التطفيل

قولنا علنا دعينا فغبنا او اتانا فلم يجدنا الرسول

و قال آخر منهم:

نحن قوم إن جفى الن...ٍ س، وصلنا من جفانا

لا نبالي صاحب الدا... ر، نسينا ام دعانا

(٢٦)

طفيلية هذا الزمان

رغم كل ماتدفق من ثروات النفط وارتفاع مستوى المعيشة في عصرنا هذا، فإن هذه المهنة، مهنة التطفيل لم تمت قط، بل على العكس ازدهرت بتفاقم البون بين الفقراء والأغنياء. ظهرت في الواقع انواع جديدة منها، مثل مأكلات المؤتمرات والندوات الفكرية والحفلات الدبلوماسية، واجتماعات الأحزاب والمنظمات السياسية والخيرية، ونحو ذلك. يتفنن الطفيليون في النفوذ اليها والتظاهر بإهتمامهم بموضوعها لمجرد الاستمتاع بأطايبها من مأكولات ومشروبات نادرة.

كثيرا ما ارتبطت مهنة التطفيل بالأعراس والأفراح. هكذا لقبوا شيخ هذه الطريقة، طفيل بن دلال الوارد اسمه فيما سبق، بطفيل الأعراس. وفي عصرنا هذا، بما تدفق من مال على البعض، اصبحت حفلات العرس استعراضا رهيبا للثروة والجاه. غصت فنادق الخمسة نجوم والفلل الشامخة بحفلات الرقص والقصف والشرب وكل ما يجسم البذخ الخيالي. وبالطبع تفنن وتبارى الطباخون والمجهزون ومدراء الفنادق بتجهيز اعجب الأكلات، يأتون بها من باريس وروما وموناكو. وفيما وقف الشحاذون والمعدمون متسترين وراء جدران وسياجات هذه الأبنية الشامخة انتظارا لما سيلقى منها في القمامة من فضلات الأكل، تفتقت اذهان الطفيلية من ابناء وبنات الطبقة المتوسطة، شعراؤها وادباؤها واساتذتها

وكتابها، في الاهتداء لشتى الذرائع للتسلل لهذه الحفلات والتزود بما ناءت به الموائد والمقاصف من اطاييب الأكل والشراب.

لم يتوفقوا دائما في مسعاهم، فالأعراس اصبحت اليوم مقيدة بالدعوات والمقاعد مسماة بالأسماء. من لم يدع لن يجد لنفسه مقعدا يجلس عليه ويأكل. وعلى الباب بواب وشرطي وضباط امن يدققون في البطاقات.

من لم يتوفق في اقتحام عرس يتوجه لأقتحام مأتم. ينحدر من الكوميديا الى التراجيديا. فللمآتم والعزءات وما نسميه في العراق بالفاتحات تميزها على الأعراس والطهورات (حفلات الختان) انها ليست محددة بدعوات. ولا احد يستطيع ان يمنع مستطرقا في الدخول والاستماع لتلاوة القرآن الكريم وتقديم التعازي وقراءة الفاتحة على روح الميت. " السلام عليكم" يقول وينظم للجالسين. يرفع يديه الى السماء ويهتف بصوت دراماتي " الفاتحة" فيرفع الجميع ايديهم ويتلون معه السورة الكريمة. ثم يمسح وجهه بنور الأسلام. " يقول له الحاضرون " الله بالخير." فيرد على التحية بمثلها. يخرج مسبحته ويبدأ بعد خرزاتها وهو يستمع بخشوع للتلاوة الكريمة، يهز رأسه متأثرا بين الفينة والفينة وكأنه هو المنكوب بالوفاة ولا احد غيره. يظل يردد مرة تلو الأخرى، " لا حول ولا قوة الا بالله."، وذلك حتى يسمع النداء الكريم من اهل الفقيد " تفضلوا يا اخوان للعشا." يضع المسبحة في جيبه ويسرع قبل غيره ليتصدر المائدة امام صينية الدولمة او الكسكسي بحذق الطفيلي المتهن.

هناك الآن شريحة كاملة من الناس يعيشون كليا على موائد المآتم. ما ان يستيقضوا من نومهم حتى يفتحوا صفحة الوفيات من الجريدة اليومية. من مات يوم امس وتشيع جنازته اليوم وتقام الفاتحة على روحه مساء

الليلة. يدقق فيها كما لو كانت قائمة مطعم. فبيت الخضيري باميتهم جيدة ولكنهم لا يحسنون طبخ التمن. وآل السويدي معروفون بالكبة ولكنهم لا يقدمونها العنبة معها. وهكذا حتى يختار اين يأكل عشاءه هذا اليوم ويقدم التعازي لأي اسرة.

و حيث لا يكون بيد الطفيلي جريدة تعلمه بآخر ولائم الوفيات، يخرج من بيته ويتسمع لنداء المنادي او البرّاح، كما يسمونه في بعض البلدان العربية، وهو ينادي بموت فلان بن فلان ويعلن عن تشييع جنازته وإقامة العزاء على روحه ومكان وزمان كل ذلك. فيخف الطفيلي اليه شاحذا بطنه واسنانه.

و للأطعمة الجنائزية اطباقها التقليدية الخاصة تتباهى بها اسرة الفقيد وتستعرض بها ثروتها وسؤددها فتصبح بمكانة إعلان تجاري لأعمالها وإمكاناتها المصرفية. الشيعة في العراق وايران تخصصوا بأكلة السبزي التي تقوم على السبيناغ واللحم والكراث والفاصوليا الحمراء والتوابل. ولها لون يميل الى السواد ومذاق يميل الى الحموضة والمرارة، لعلهما يعبران عن اسى مقتل الحسين. والسنة تخصصوا بأكلة الطرشانة، وهي مرقة مركبة من اللحم والمشمش والزبيب والبصل، لها لون وردي ومذاق حلو. يقدمها اهل الفقيد ويقولون: " الله يرحمه كان يحب الحلو." يقولون ذلك وكإن الميت سيستمتع معهم تحت التراب بهذه الطرشانة اللذيذة مع الرز البسمتي. فلا ينحرم منها لمجرد انه قد مات.

يسمع الطفيلي ذلك فيتمتم بصوت عال: " تغمده الله برحمته. أي والله! كم كان مغرما بالطرشانة!" ويمد يده اليها ويلقط اكبر لحمة فيها.

معظم المتطفلين على موائد العزاء والأعراس عزاب بدون عوائل. خلفت صعوبات الزواج وغلاء المهور في هذه الأيام عددا كبيرا من العزاب. واصبح الكثير منهم يعيشون حياة الوحدة في غرف حقيرة من المسافرخانات ودور الأيجار. لا يستطيعون إعداد الطعام لأنفسهم او تسوق المواد الغذائية من الدكاكبن. وبأنتشار البطالة العامة، عجزوا عن الأكل في المطاعم والفنادق ودفع فاتوراتها. هكذا اهتدوا ال فكرة التطفل على حفلات من كانوا اكثر حظا منهم في الحياة.

بازدياد الموت في عالمنا العربي نتيجة كل هذه الحروب والارهاب والتقاتل والأمراض الوبائية، ازدادت مجالس العزاء واخذت ولائمها تشكل نوعا من الضمان الأجتماعي يعطي العزاب العاطلين وجبة يومية مجانية. لم يعد البحث عن وظيفة او عمل شيئا مجديا لمن ليس لديه واسطة او فلوس للرشوة. الأفضل ان تبحث عن وليمة عزاء او جنازة فيها كعك.

الجميل في التطفيل العزائي انه لا يتطلب دعوة ويعتبر نوعا من الطقوس الدينية يشارك فيها المسلم وغير المسلم كمعروف بل وتكرم منه. لا يشترط فيه ان يكون على معرفة بالفقيد او بأهله. سألوا طفيليا هل تعرف الميت؟ قال لا. قالوا هل تعرف احدا من ذويه قال لا، ولكنني اعرف هذا، واشار الى شيش الكباب الذي في يده.

و سألوا آخر كيف تشارك في هذه الوليمة وانت لا تعرف احدا منهم؟ قال افعلها للأجر. وكان في هذا الجواب في الحقيقة يعتبر نفسه متصدقا عليهم وعلى فقيدهم. إنه اجر وعلى الميت ان يسدد ذلك له في يوم القيامة.

رحم الله من قام بعمل واتقنه. ويعني هذا ان صناعة التطفيل تتطلب من الطفيلي الممتهن ان يتقن كيف يسلك في هذه المناسبات. يطأطأ رأسه، ويهزه يمينا ويسارا في اسى كلما جاء ذكر الآخرة ويكثر من الترحم على الميت ويشيد بفضله على الناس دون ان يخوض في التفاصيل مما لا يعرفه ولم يسمع به. رأيت في الواقع احد الطفيليين ينفجر بالبكاء بدموع حقيقية كلما جاء ذكر الفقيد حتى اسعفه احد الحاضرين بمنديله ليكفكف دموعه. فعل ذلك ثم دس المنديل الحريري في جيبه. من ذلك ايضا، الويل للطفيلي الذي ينسى المسبحة في بيته ويجلس في العزاء بدونها.

ولائم المآتم فرصة لأسرة الفقيد تستعرض فيها ثروتها وقدراتها، وبالتالي تعطي فرصة طيبة للعزاب العاطلين والمحرومين ليذوقوا ما لم يعرفوه في بيوتهم الحقيرة من انواع الكبة والمرق والحساء والسكاكر. وفي اكثر البلدان العربية ارتبطت ولائم المآتم بأكلات خاصة كما سبق وذكرنا.

================

(٢٧)

الاستاذ الطفيلي

و كما ذكرنا في الفصل السابق، اضيف في العصر الحديث فصل جديد الى تاريخ الطفولية يقوم على تطفيل الأساتذة والكتاب والشعراء والعلماء والاكاديميين عموما. ترتب هذا الفصل على ازدهار صناعة المؤتمرات والندوات وما صحبها من دعوات وضيافات وولائم سخية. راح القوم يتنافسون ويتوسطون ويلجأون لكل وسيلة ليكونوا بين المدعوين وينظموا للوفود الموفدة او المدعية. لا يهم الموضوع فليكن عن مرض الايدز او الشعر المنثور. كلها سواسية. المهم هو ان يكون بين المدعوين ليأخذ حقه من المأكلة. الواقع ان كثيرا من الخبراء اصبحوا يطلقون على هذه الندوات إسم "المأكلة." وشاعت الحكمة الدارجة: "اكتب ورقة وتفرج على العالم." فما يفعله الكثير منهم هو ان يكتبوا ورقة واحدة يلقونها على أي تجمع، ويكررون القائها على سواه من التجمعات في القاهرة ثم بغداد وواشنطن ولندن وهات ما عندك. قد يغيرون شيئا منها وقد لا يغيرون.

و بالطبع يلحق بهم الكثير من المتطفلين الآخرين، صحافيين ومصورين وتلفزيونيين ومراقبين ... الخ. إنها حياة رغيدة لا يكدرها غير المرض الذي ينتاب الكثير منهم بسبب إفراطهم بالأكل والمشروبات. سمعت ان أحد الكتاب الأطباء قد شرع بتأليف كتيب ينصح هؤلاء النخبة بكيفية الحفاظ على صحتهم ووزنهم دون الحاجة الى التقشف في الأكل والشرب، مع تمارين رياضية تمكنهم من تناول ست او سبع وجبات في اليوم بدلا من ثلاث فقط، واكل عشرة اسياخ من الكباب بدلا من اثنين فقط. وكل

ذلك بعد ان لقي البعض منهم حتفهم اثناء المناقشة او المشاركة نتيجة كثرة ما أكلوه. والحكمة هنا هو ان يأكل الاستاذ بعد المشاركة وليس قبلها ولا يملأ بطنه بالماء على المنصة.

يقال ان الحجة اللغوية د مصطفى جواد رحمه الله كان يخاف ركب الطائرات. ولهذا امتنع من حضور اي ندوة عالمية. ولكن المسؤولين الحوا عليه بحضور ندوة في باكستان عن اللغة في القرآن الكريم. ولم يستطع الإعتذار فركب الطائرة وذهب. والظاهر أن ما شهده من الضيافة وكل هذه الأطباق العجيبة من المطبخ الهندي، البرياني بالزعفران والدجاج مسالا واللحمة البولتي مع الثوم وما صاحب ذلك من الأطايب قلب تفكيره وبدد جبنه ومخاوفه فقضى بقية ايام حياته يتردد على رآسة الجامعة ويسأل: " اكو شي مؤتمر جديد؟"

تمكن البعض منهم ضم زوجاتهم للدعوة ايضا بحجة ان ذلك ضروري لشحذ تفكيرهم وبراعة تعليقاتهم. يقال ان واحدا منهم دعي لندوة عن حقوق المرأة في الاسلام فجاء معه بزوجاته الأربع.

المعروف ان اليونسكو تضع دول العالم العربي في آخر قائمة البحث العلمي. فأمام ما تنفقه اسرائيل على ذلك، وهو ٧ر٤ بالمائة من الناتج القومي يقابلها ٣ر٠ بالمائة ينفقها العالم العربي. ولكن ذلك يعود الى انهم لم يحسبوا ما ينفقه العالم العربي على الأكل والولائم المرتبطة بالبحث العلمي عندنا. فأنا لا استطيع ان اتصوراي دولة في العالم تستطيع ان تفوق علمائنا وادبائنا في اقتحام الولائم والمآكل. ولكن المؤسف ان اليونسكو لم تنظم بعد جداول خاصة بالتطفيل والطفيلية في ميادين الفكر والعلم والترجمة والبحث.

================

(٢٨)

حسن الجواب

" المهرج" ترجمة ركيكة جدا لكلمة clown التي تتردد كثيرا في الأدب الانجليزي، ولها شخصياتها المثيرة والظريفة في مسرحيات شكسبير. كلمة" الطفيلي" ادق في رأيي ترجمة. فالكلاون يتطفل على الموائد ويعيش ذيلا على المتمكنين. يمتاز بحدة الذكاء وسرعة الجواب وبالحكمة الممتزجة بالسخرية والجد المرتبط بالهزل. والواقع ان العرب خرجوا بكلمة الطفيلي من محتواها الأصلي فيما بعد واخذوا يستعملونها في نعت اي ظريف ومنكت.

سبق ان كتبت وقلت ان من اول اسلحة الطفيلي الناجح اللسان اللذق القادر على إفحام من يندد به او يتحداه او يمنعه من دخول الوليمة او الحفلة ثم يعطيه الفرصة لبلوغ مبتغاه، وهو طبعا الأكل. كثيرا ما تنطوي اجوبته على درر من الحكمة والفلسفة. سألوا طفيليا يوما، لماذا يقف العلماء على ابواب الأغنياء ولا يقف الأغنياء على ابواب العلماء؟ فقال هذا لأن العلماء يدركون فضل المال في حين أن الأغنياء لا يدركون فضل العلم.

من امثلة حسن الجواب، او ما يسمى ايضا بحسن المخلص، وحضور البديهة التي يتميزبها الطفيليون ما يجدر بأي شاعر مسترزق او اي سياسي محترف او وزير مختلس وموظف مرتش ان يدرسه ويتعلم منه. مر طفيلي على قوم يتغدون، فقال " سلام عليكم يا معشر اللئام." فقالوا، لا والله بل كرام. فثنى ركبته وجلس وقال: " اللهم اجعلهم من الصادقين واجعلني من الكاذبين."

و دخل طفيلي الى قوم يأكلون فقالوا له: ما دعوناك. فما الذي جاء بك؟ فقال: اذا لم تدعوني ولم آت وقعت الوحشة بينكم. فضحكوا وقربوه للخوان.

من حكاياتهم، يروى ايضا ان طفيليا رأى نفرا من الزنادقة يسار بهم الى القتل. فظنهم في طريقهم الى صنيع فتلطف حتى دخل في لفيفهم وصار كواحد منهم. فلما وصلوا ضابط الشرطة أمر بضرب اعناقهم. فقدموا واحدا بعد واحد حتى انتهوا اليه فتوسل بالضابط: إني والله لست منهم ولا اعلم بما يدينون. إنما انا طفيلي ظننتهم في طريقهم الى وليمة فتلطفت ودخلت بينهم. فقال: هذا لا ينجيك. اضربوا عنقه! فقال: اصلحك الله، إن كنت عزمت على قتلي فأمر السياف بأن يضرب بطني بالسيف فهو الذي اوقعني في هذه الورطة. فضحك الضابط واطلق سراحه.

وردت في التراث امثلة اخرى على هذا النسق وعلى الخصوص في نهاية الأرب في فنون الأدب. منها ما صادفه المأمون عندما عهد بطفيلي الى ابراهيم بن المهدي ليؤدبه، عالما حق العلم بأن التطفيل هو اساس الحكم ودستور الأمة ومنتهى الحكمة في العالم العربي.

و خرج جماعة في سفر فلحق بهم طفيلي. وكان ان اتفقوا على ان يتشاركوا في النفقات. فقال الأول علي كذا. وقال الثاني وعلي كذا وقال الثالث وعلي كذا. فلما بلغوا الطفيلي قال: وعلي ... ثم سكت. فسألوه ماذا عليك؟ فقال: لعنة الله ان لحقت بكم. فضحكوا وأعفوه من النفقة.

و من جوعيات الطفيليين ان سأل تلميذ طفيليا كم اثنين في اثنين اجازك الله؟ فقال: " اربعة ارغفة." ورغيف الخبز هو من اماني واحلام أي طفيلي محترف، مما سنتناوله فيما بعد.

================

(٢٩)

الخبز اولا

الحاكم المسلم مسؤول عن حماية رعيته من الجوع. هذا على الأقل ما قاله الشيخ سلمان آل خليفة، امير البحرين ،عند مطالبة المقيم البريطاني بتوفير الطعام للشعب اثناء الحرب العالمية الثانية. وحصل على ذلك. وهو في الواقع ما امر به الرئيس حسني مبارك مؤخرا عندما امر بتحويل الجندي المصري من مقاتل ضد اسرائيل الى خباز يوزع العيش على الناس في القاهرة. وحسنا صنع.

للخبز مكانة عجيبة في تراث الشعوب وسياساتها. حيثما التفتنا في تاريخ الثورات والحروب واجهنا هذا الشعار: " الخبز للجياع" كل ذلك رغم ان كثيرا من الشعوب لا تعتمد على الخبز كطعام اساسي. في الهند وشرق آسيا يعتمدون على الرز. في الجزيرة العربية يعتمد البدو على التمر. ولكنني لم اسمع احدا يهتف " التمر للجياع"، رغم ان جل ماوردنا من التراث النبوي يشير غالبا الى التمر وليس الى الخبز. وفي اوربا يعتمدون على البطاطس. ولكن عندما سألت ماري اطوانيت ما الذي يريده هؤلاء المتظاهرون قالوا لها إنهم يطالبون بالخبز. فقالت: دعهم يأكلوا الكعك." لم تقل دعهم يأكلوا " الجيبس" او الفريت او البطاطا. فلو فعلت ذلك لربما حالت دون وقوع الثورة الفرنسية. ولهذا تجدونني من المؤمنين بضرورة سن مادة خاصة في الدساتير تنص على أن: " تلتزم هذه الدولة بتوفير الخبز والصمون والكعك والكليجة لسائر قطاعات الشعب."

وهو في رأيي اهم واجدى من كل هذا الكلام السخيف عن الديمقراطية واستقلال السلطات وشكل الحكم.

طالما قيل ان الشيوعيين في العالم العربي كانوا يحملون المضلات عندما تمطر السماء في موسكو. لم ارهم يفعلون ذلك، ربما لأننا لم نملك مضلات. ولكنني سمعتهم في المظاهرات يهتفون دائما " الخبز للجياع!" كلما تعرض الرفاق في موسكو للجوع. فلم يكن العراق في العهد الملكي يعاني من اي مجاعة.

ربما يعود هذا السحر المرتبط بالخبز الى ما جاء في الكتاب المقدس. فالعبادة المسيحية تشمل الدعاء " هاتنا ربنا خبز يومنا." ومع ذلك فإنني وجدت المسيحيات في العراق يبدعن في طبخ الكبة وليس في صنع الخبز.

" نعمة الله" هي الكلمة التي اعتدنا على استعمالها مجازيا في تسمية الخبز. واعتبرنا اي إساءة لها او قلة احترام نحوها إساءة للخالق تعالى. حيثما نجد كسرة خبزة منها ملقاة على الأرض نلتقطها ونمسح عليها بحرارة كما لو نهود مارلين مونرو، ونضعها على رأسنا ثم نحملها الى مكان مرتفع ولائق بها بعد ان نقبلها دون ان يعترض علينا الأصوليون لتبادل القبل مع كائن مؤنث في الشارع. حدثني صديقي محمد سعيد خفاف، التاجر العراقي الكردي، انه عندما بدأ حياته العملية، حذره والده من التجارة بالحبوب. قال له الحبوب هي قوت الشعب وانت كتاجر تسعى لزيادة سعر بضاعتك فتكون سببا في إرهاق الفقراء. ابتعد عن هذا الخط الحرام. فتحول ابو كاوا الى تجارة الصوف على اعتبار ان الغنم من الكائنات الوحيدة في العراق التي لا تتعرض للأعتقال والسجن والارهاب ولا يسألها احد عن دينها وطائفتها وهويتها.

================

(٣٠)

واذا أكلنا لا نشبع

شاعت بيننا هذه الحكمة القائلة: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لا نشبع." وهي حكمة توجز حياة العرب تاريخيا وتتجسم في سلوك الجمل. كلاهما من نتاج البيئة. كل وتزود بالأكل حيثما وجدت الأكل امامك فقد لا تجده يوم غد. ومن استحسان العرب لهذه الحكمة واستيعابهم لها، سمعناهم يسندونها الى شتى رجالات التاريخ من ابراهيم الخليل الى النبي محمد.

مع ظواهر البخل والكرم والتطفيل مما ترتب على حياة الجوع والفقر، نشأت ظاهرة النهمة. ولا شك انها كثيرا ما ارتبطت بحياة الطفيليين. فالطفيلي لا يدري متى سيمن الله عليه بوليمة اخرى فيحاول ان يتزود ويختزن بما هو امامه. وقد وردت عن النهمة والنهماء حكايات وطرائف كثيرة. حتى قالت العرب فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام وعصا موسى في سرعة الالتهام.

و ذاعت شهرة بعض نجوم النهمة في تاريخنا العربي. كان منهم ابو مرة. سألوه يوما اي الطعام احب اليك فقال: " لحم سمين وخبز سميد اضرب فيه ضرب ولي السوء في مال اليتيم!" وكان منهم هلال المازني حكى عنه ابن عمه صدقة بن عبيد المازني قال: اولم لي ابي عندما تزوجت فعمل عشر جفان (قصعة) ثريد من جزور. فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها، ثم اخرى

فأكلها حتى اتى على الجميع. ثم اتي بقربة مليئة بالنبيذ فجعل طرفها في شدقه وأفرغها كلها في جوفه.

و قيل ان عبيد الله بن زياد كان يأكل يوميا خمس وجبات. استضافه شخص من بني شيبان وهو في طريقه الى الكوفة. ذبح له عشرين طائرا من الأوز فأكلها ثم قدم الطعام له فأكله ثم جيء بزنبيلين في احدهما كمية من التين وفي الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة ومن ذاك بيضة حتى اتى عليه جميعا. ثم رجع وهو جائع!

و ذكر للمهدي ان ميسرة البراش كان يأكل الكبش العظيم مع مائة رغيف من الخبز. فأستدعاه وراح يمتحنه. يلقي اليه رغيفا بعد رغيف وهو يأكلها حتى بلغ تسعة وتسعين رغيفا. ثم القى له بالرغيف المائة فعجز عن اكله!

و حدث الشيخ نبيه الدين الجوهري عن الشيخ الإمام عز الدين ابن عبد السلام ان معاوية بن ابي سفيان كان يأكل كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع.

و نزل رجل بصومعة راهب فقدم اليه الراهب اربعة ارغفة وذهب ليحضر اليه العدس فلما عاد، وجده قد اكل كل الخبز. فذهب ليأتي بمزيد من الخبز فلما عاد وجده قد اكل كل العدس. وفعل ذلك معه عشر مرات. يأتي بالخبز فلا يجد العدس ويأتي بالعدس فلا يجد الخبز. فسأله الراهب، اين مقصدك. قال الى الاردن. قال لماذا؟ قال بلغني ان فيها طبيبا حاذقا. اسأله عما يصلح معدتي. فإنني قليل الشهوة للطعام. فقال له الراهب: إن لي حاجة اليك. قال ماهي؟. قال إذا ذهبت واصلحت معدتك، فلا تجعل رجوعك علي!

هذه الظاهرة بين الجوع والتخمة، المعدة الفارغة والمعدة المتخمة، تجسم من زاويتها ظاهرة اخرى وهي ظاهرة التطرف في السلوك العربي والذهنية العربية. ولربما نعتبرها من اسباب شيوع القرحة في المعدة والأمعاء وشتى العلل الهظمية التي ابتلى بها اكثرنا في دنيا الشرق الأوسط. فما من شيء اسوء للمعدة اكثر من خلوها وامتلائها.

=================

(٣١)

من عرفتهم من النهماء

لابد ان سمع اكثرنا بالعجيب من حكايات النهماء، النهيمين والشريهين ومحبي الأكل الى حد المرض في ايامنا هذه. الحقيقة ان الإمعان في الأكل اصبح من المشاكل التي تهدد مستقبل البشرية بما تتركه من آثار سيئة على الصحة والبيئة والأقتصاد الوطني.

كثيرا ما اندهشت من سلوك بعض النهمين. من ذلك ما عرفته عن الشرطي العراقي الذي كان يخدم في بيت ابن عمي عبد الرحمن عندما كان مديرا لشرطة البادية في العراق، البادية التي امتدت من السماوة الى حدود المملكة العربية السعودية وضمت بين كثبانها ذلك السجن الرهيب، سجن نقرة السلمان. كان القوم قد اعدوا ذبيحة، خروفا محشيا بالرز واللوز والزبيب على عادة الولائم العربية. بيد أن البعض آثروا اكل لحم الغزال والخروج للصيد لهذا الغرض. خرجنا وقضينا عدة ساعات وراء القنص ولكننا لم نوفق الى شيء. قررنا الرجوع لنأكل الخروف المحشي. عدنا الى بيت مدير الشرطة واذا بنا نكتشف ان الشرطي الخادم، وقد رأى اننا خرجنا للصيد وتركنا الخروف، اعمل كلتا يديه فيه فأكله بكامله مع ما فيها من رز واحاطه من خبز ولبن وسمنة. عبثا حاولنا العثور على أي شيء تبقى منه! بالطبع انهال ابن عمي بالضرب على الشرطي المسكين لما قام به من اكل الخروف وترك الافندية، ضيوف المدير جوعى بدون طعام.

مما قرأته في هذا السياق عن الشره والنهمة، حكاية ما يمكن ان اسميه مجازا بشهيد الفول. روت حكايته احدى الصحف المصرية فقالت انه كان عاملا بسيطا وفقيرا

حظي بوليمة عرس شعبي احتلت فيه اكلة الفول مكانا رئيسيا على شأن الطبقة العاملة في مصر. ظل يأكل من الفول ما اتخمه واضطره الى العودة الى غرفته الصغيرة فأوصد الباب والشباك في ذلك الشتاء القارس. القى بجسمه على الفراش واستغرق في نوم عميق. افاد جيرانه فيما بعد الى الشرطة بأنهم سمعوه طوال الليل وكأنه يشق قماشا بصوت عال وتكرار مستمر. اكتشف المحقق ان الرجل قد اطلق بفعل ما اكله من الفول كمية من غاز الكبريتيد من بطنه بالضراط والفساء المستمر ما ملأ الغرفة بالغازات السامة وتسبب في تسمم الرجل وموته. ذهب رحمه الله شهيدا للفول وغاز الكبريتيد. وكانت اول مرة اسمع فيها عن رجل يقتله الغاز المنطلق من بطنه. سمعت الكثير من النكات والطرائف الكوميدية عن الضراط، ولكن هذه كانت اول حكاية تراجيدية حبكتها الضراط.

ينشغل العراقيون في هذه الأيام بأنباء مباريات كرة القدم، واحيانا مباريات التنافس على المناصب والسرقات. في عهد ايام الخير من الحكم الملكي كانوا يتبارون على اكل الكبة. كم كباية موصلية تستطيع ان تأكل؟ الكبة الموصلية قرص بقطر يقرب من ثلاثين سنتمترا من البرغل المعجون باللحم والشحم. في داخله كمية سخية من اللحم واللوز والبصل والزبيب الأحمر احيانا. المعتاد لنا، انا وزوجتي واولادي ان نتغدى بكباية واحدة نتقاسمها بيننا. ولكن ابطال الكبة كانوا يتبارون على اكل عشرين او ثلاثين واحدة. غالبا ما نقلوا ابطال المباراة الى المستشفى بعد العشر او عشرين كباية. وكثيرا ما اتسائل عن دور اكل الكبة في الحمق الذي وقعوا به منذ ثورة ١٩٥٨ ومازالوا يتخبطون به.

================

(٣٢)

الوطنجية

في سائر المناطق الناشئة والنامية ظهرت شريحة من المتعلمين، خريجين ومفكرين وادباء وشعراء وفنانين، لاحظت تميزها عن بقية السكان فاستعرت في نفوسها دوافع الطموح والإرتقاء. ولكنهم بعين الوقت وجدوا انفسهم يعانون من البطالة والفقر، بل والجوع ايضا. مما اتذكره ان احد زملائي في كلية الحقوق، حنون عبد، مات جوعا بالفعل واضطررنا الى جمع تبرعات لأسرته المعدمة. وفي كثير من هذه الجهات وجدوا أن الأجنبي يتحكم في بلدهم ويقف في طريق طموحاتهم فسعوا الى طرده بشعار الوطنية. انتمى الكثير منهم الى شتى الأحزاب والمنظمات السياسية وسخروا اقلامهم وفنونهم للسخرية بالاجنبي وببعضهم البعض. هكذا حصلنا على كل هذه الدواوين الشعرية والمسرحيات الكوميدية والاعمال الروائية التي تدخل في إطار الفكاهة والسخرية. تطرقت لهذا الموضوع في كتابي " السخرية السياسية العربية." الذي نشرته اولا باللغة الانجليزية وقام الدكتور كمال اليازجي بترجمته الى العربية.

بالطبع، إن الانسان والحيوان ايضا يتمسك بأرضه ويحميها من دخول الآخرين، الغريب، ومشاطرته فيها. بيد ان الوطنيين سعوا الى تسخير هذا الميل الغريزي في السكان بحيث يصب في مصلحتهم الخاصة. تحولت

الوطنية على ايديهم الى " وطنجية"، مهنة يتعيشون منها بغض النظر عن تأثيرشعاراتها واساليبها ونتائجها على الآخرين.

سرعان ما لمس البعض هذا المردود السلبي لحركة " الاستقلال" والوطنية بما خلفته من شقاء وتضحيات. انبروا مؤخرا للمناداة بعودة الاستعمار والتنديد بالحكم الوطني. كان هذا الكاتب من اول من التفت الى هذه الظاهرة ونادى صراحة بعودة الاستعمار. من ذلك مقالة نشرها في صحيفة الشرق الأوسط بعنوان " يحيا الاستعمار". ذكر الكاتب ان الأنجليز كانوا اكثر رأفة بالفقير من الحكام الوطنيين. على الأقل، أنهم لم يتسببوا بمقتل نحو مليون عراقي شاب في حروب رعناء ضد الدول المجاورة بإسم الوطنية. وصف في مقالة اخرى حركة التحرر الوطني بحركة الحرامية. لقد كان الافندية يعيشون على الفساد من رشوات واختلاسات في العهد العثماني. جاء الإنكليز فمنعوهم من ذلك، فثاروا عليهم. حصلوا على الاستقلال فعادوا الى ما اعتادوا عليه من سرقات وفساد كما نرى اليوم. من اكبر عمليات السرقة التي قام بها الوطنيون تقسيم الأراضي الأميرية فيما بينهم بعد ان كانت ملك الدولة في العهد العثماني. اول عمل قام به جعفر العسكري، الزعيم الوطني ووزيرالدفاع حالما نال العراق استقلاله عام ١٩٣١، كان الاستيلاء على الأرض الثمينة المطلة على نهر دجلة في محلة العيواضية. فتحوا شارعا جديدا اليها بإسم شارع العسكري. علقت عليه فقلت هذه اول مرة في التاريخ تقوم فيها دولة بتخليد حرامي بإطلاق اسمه على شارع رئيسي فيها!

بموازاة الأعمال الأدبية والفنية التي ظهرت في مساندة الحركة الوطنية، نشأت مدرسة اخرى من الفكاهة تسخر مما تمخضت عنه هذه الحركة.

انتشرت بصورة خاصة بين الجمهور، خلسة في اكثر الأحيان وبما يسميه الغربيون بالأدب التحت الأرضي، ادب النكات والقفشات والاشعار والأغاني الشعبية. يسخر فيها العاطلون والمحرومون الجياع من ترف الفئة الحاكمة، فئة الوطنجية. شاعت في مصر النكات على الأسرة المالكة ثم على جمال عبد الناصر وشلته. وفي العراق ضحكوا على المهداوي في عهد عبد الكريم قاسم ثم على ميشيل عفلق وصدام حسين وعلي كيمياوي في عهد البعث. في السودان نكتوا على جعفر النميري. وردد الفلسطينيون بعض النكات على ياسر عرفات.

التحق دبلوماسي سوداني بعمله في السفارة السودانية في الجزائر. وكان من اشد المتحمسين للثورة الجزائرية. ولكنه سرعان ما اصيب بخيبة كبيرة مما رأى من الحكم الوطني. عبر عن قرفه لصديق جزائري فقال: " أهذا حقا بلد المليون شهيد؟" اجابه الجزائري قائلا: " تقول بلد المليون شهيد! هذا يا سيدي بلد الثلاثين مليون شهيد!"

و في مصر، ضاقت قرفا امرأة مصرية من تحمس زوجها لعبد الناصر. قالت له ما الذي جنيناه منه؟ إذهب اليه وأسأله، ما الذي جنيناه منه؟ وبالفعل فعل الرجل ما قالته زوجته. ذهب الى رآسة الجمهورية وطلب مقابلة سيادة الرئيس. أدخلوه عليه فحكى اليه عن تحدي زوجته له. اجابه عبد الناصر. " ايوه. افهم ما تقول. ولكن اذهب الى هذا الشباك وانظر وقل لي ماذا ترى؟" فعل الرجل ذلك فرأى الحديقة الزاهرة حول القصر والأبنية الشامخة المحيطة به والشوارع النظيفة المؤدية اليه. وصف كل ذلك للرئيس فقال له: " شايف؟ بعد عشر سنين كمان مع الاتحاد

الاشتراكي، مصر كلها ح تصبح كده. روح قل لزوجتك هذا. بعد عشر سنين مصر كلها ح تصبح كده."

شكره الرجل وعاد لزوجته وفعل ما امره به الرئيس. قال "روحي يا وليه للشباك وقولي شايفة إيه؟" ذهبت ونظرت وقالت: شايفة كوم الزبالة عالرصيف والأولاد يلعبون عرايا فوقها والسيارات القديمة الخربانة والأكواخ المهجورة المكسرة."

" شايفة؟ بعد عشر سنين ويا الاتحاد الاشتراكي، مصر كلها ح تصبح كده."

كثيرا ما نال الساخرون من حكامهم الجدد بالنيل من شرف نسائهم. إنها الطريقة العربية التقليدية في مهاجمة الخصم. امعن المصريون في التشهير بشرف، او عدم شرف، الملكة نازلي، والدة الملك فاروق. ما ان سمع الشاعر الشعبي بيرم التونسي بزواجها بالملك فوآد حتى عبر عن اعتقاد الجمهور بأنها لم تكن باكرة، فقال:

الوزة من قبل الفرح مذبوحة

و السكة من قبل النظام مفتوحة،

و لما قالوا تزوجت المفضوحة

قلت اسكتوا، خلوا البنات تتستر.

دفع الشاعر ثمنا عاليا لهذه الكلمات عندما هاجمه ازلام النظام واشبعوه ضربا في الشارع ثم نفوه خارج البلاد. ولكن ليس قبل ان يبث مشاعره الاشتراكية ضد الطبقة الحاكمة بسلسلة من الاشعار اشتهرت منها قصيدته عن المجلس البلدي:

يا بائع الفجل بالمليم واحدة

كم للعيال وكم للمجلس البلدي؟

و في العراق، شاعت في العهد الملكي قصائد عبود الكرخي في السخرية من مجلس النواب وحرية الصحافة. سخر في احداها من نائب شاب مدلل:

لا لحية ولا شاربو اصبح لي الصبي نائب

و في قصيدة اخرى وصف المجلس النيابي بدار العجزة فقال:

يا من بالنيابة اتجبر ومغرورويا مبغوض شعبه جمله والجمهور

دار العجزة مجلسكم المعموراسم لازم عليه العالمين تذب

كان لكل وزير في العهد الملكي مستشار انكليزي هو اليد المسيرة في الواقع لشؤون الوزارة. لاحظ ذلك الشاعر جعفر الشبيبي فانفتحت قريحته بهذا البيت الشهير الممعن في السخرية البليغة:

المستشار هو الذي شرب الطلى

فعلام يا هذا الوزير تعربد؟

بيد انني سمعت بأن عددا من الشعراء تنازعوا على هذا البيت، كل يدعيه لنفسه. وهو ما يحصل دائما بين الوطنجية. يتنازعون. ونزاعهم يرجع في آخر المطاف الى النزاع على لقمة العيش في الواقع، ما اخذ الجمهور يسمونه في هذه الأيام بعركة على الكعكة. ولكن العركة على الكعكة غالبا ما ادت الى تقاتل وحروب اهلية دموية، كما حصل في العراق واليمن وفلسطين والجزائر والمغرب وعمان ولبنان. اجتمع عدد منهم مع الرئيس اللبناني لبحث تطورات الحرب الأهلية. التفت الى واحد منهم وقال: من تمثل انت يا سيدي لتحضر هنا وتشارك في النقاش؟ كل واحد من هؤلاء يمثل

حزبا او كتلة معينة. من تمثل انت؟" اجابه قائلا: انا يا حضرة الرئيس امثل المقتولين؟

و في غمرة القتال حضر احد مطارنة الكنيسة لمقابلة الرئيس. جلس ينتظر. مرت الساعات وهو ينتظر. مل من الانتظار فتأفف وقال: " لا اله الا الله محمد رسول الله." سمع ذلك شيخ من شيوخ الأسلام فالتفت الى المطران وقال: " شو هذا ابونا؟ يعني صرت مسلم؟"

أجابه المطران: " ما كفرونا يا رجل!"

==================

(٣٣)

جوعيات المرأة

تحدثت في كل ما سلف عن الجوعى والبخلاء والكرماء والثقلاء والطفيليين وكإن هذا العالم الذي خلقه الله من ذكر وانثى وكإنه لا محل فيه ولا ذكر للأناث، رغم هذه الحقيقة الناصعة بأن المرأة هي الضحية الأولى لمصائب الفقر والجوع. فما هو دورها في كل ذلك وما الأسلحة التي استعملتها من اجل البقاء واستمرارية الحياة، وما انعكس من ذلك على صفحات ادب الفكاهة ؟

نجد في معظم الحضارات المترفة والمنعمة بالأغنياء نساء يكسبن عيشهن من خدمة هؤلاء المترفين وتسليتهم، لا فقط في الفراش وإنما كذلك بإيناسهم وإمتاعهم بالغناء والموسيقى والرقص والشعر والأدب والأكل والشرب وكل ما ينم عن العيش الرغيد الراقي. هكذا كان دور الهتاري في الحضارة الأغريقية والغيشا عند اليابان والمسترس عند الأوربيين. انعكس دور هؤلاء النساء المحترفات والمتفننات بلعب هذا الدور في كثير من الأعمال الفنية والأدبية. نجد الغيشا في اوبرا " مدام باترفلاي" والمسترس في رواية " نانا" لأميل زولا وفايوليته في رواية " فتاة الكاميليا واوبرا لا ترافياتا، الى غير ذلك من الكثير.

في الأدب العربي تمثلت الغانية المحترفة في شخصية الجارية. بيد ان الجواري اختلفن عن بقية الغانيات في انهن كن نوعا من الأمات يشتريهن

المرء ضمن نظام الرق في سوق النخاسة ويتهادى بها الرجال كما يتهادون بالخيل او البعير. بيد ان الكثير منهن اكتسبن مؤهلات عالية في تسلية الرجال من باب الأدب والشعر والغناء والموسيقى ونحو ذلك. اكتشفت الجارية أن مستواها المعيشي يتحسن ويرتقي ويرتفع سعرها ويفتح امامها عوالم الرخاء والنعمة في بيوت اكابر القوم ودواوين الأمراء والخلفاء بإتقانها للفنون والغناء والأدب وقول الشعر فراحت تسعى وتجهد نفسها للتزود بكل ذلك. رأينا شيئا من ذلك في فلم دنانير لأم كلثوم.

يبدو أن اكثر الجواري لم يكن عربيات مما ضاعف من صعوباتهن ومعاناتهن في تعلم الشعر والأدب. من طرائف ذلك أن احدى الجاريات كانت تواصل الجهد في نظم الشعر وتعرض نتاجها على ابي نوآس ليصححه او ينقده. وكان من المعتاد ان تصحح الكاتبة ما تقع فيه من خطأ بلطع الغلطة وإعادة الكتابة. وكثرت الأخطاء عند هذه الجارية، وبالتالي كثر لطعها للقرطاس بما اثار قريحة ابي نوآس فخاطبها قائلا:

إكثري المحو في الكتاب ومحيه

بريق اللســـان لا بالبنـــان

إنني كلما مررت بسطر

فيه محو لطعته بلســـاني

فأرى ذاك قبلة من بعيد

اسعدتني وما برحت مكاني

سمع ذلك الخطاط عبد الغني العاني فعلق على ذلك قائلا: كان ابو نوآس يقرأ خطها بلسانه لا بعينيه!

بالنسبة للمدقعين والعاجزين عن امتلاك الجواري وإعاشتهن كانت هناك " القحبة" التي تؤدي الخدمة الجنسية وقتيا للطبقات السفلى من المجتمع لقاء اجرة مقطوعة. تعاظمت هذه الشريحة في اواخر الدولة العباسية بتعاظم الفقر. اعتدن في بغداد على طرح خدمتهن بين معامل الآجر والطابوق والفخاريات في ضواحي العاصمة العباسية. وتحت دخان المعامل وغبارها، كن يتسترن في عملهن ويعلن عن وجودهن بالسعال والقح، ومن هنا جاءت كلمة قح...به. يسمع الزبائن قحاتها فيتوجهون اليها ويساومونها ويقضون وطرهم بين الطابوق وكسارات الفخاريات.

زالت فئة الجواري بسقوط الدولة العباسية وزوال الخير من بلاد الرافدين. ولكن بقي نظام القحاب. وكان ذلك تجسيما للأنهيار الاقتصادي والحضاري الذي اجتاح البلاد.

بيد ان العصر الذهبي للجواري ترك لنا عينات رائعة من تراث الشعر والأدب والحكايات والنكات والفكاهات التي غصت بها كلاسيكيات الأدب العربي، وعلى الخصوص كتاب الأغاني للأصفهاني.

فيها الكثير مما يدغدغ جوانب السامع والقاريء. سألوا احدى الجواري أأنت بكر؟ فقالت كنت عافاني الله. وسألوا اخرى: أأنت بكر ام ثيب؟ قالت اعوذ بالله من الكساد.

و رأت امرأة عجوز زوجها يزني بجارية حسناء، فقالت له اما تستحي؟ ما حملك على هذا الفعل وعندك حلال طيب في البيت؟ فأجابها قائلا: اما حلال فنعم، وأما طيب فلا.

و رأى رجل جارية حسناء في الطريق وامعن النظر فيها فقالت له: لا تنظر فيقوم ايرك وينيكني غيرك.

اشترى رجل جارية اخذها لبيته ثم سأله اصحابه فيها بعد كيف وجدها. فقال وجدت فيها خصلتين من الجنة: البرد والسعة!

صادف رجل جارية رقاصة فسألها، هل بيدك صناعة تحسنينها فقالت كلا، ولكن الصناعة عندي في رجلي.

و لم يتردد القوم عن الاستشهاد بالنصوص الدينية فرووا حكاية نسبوها الى هرون الرشيد كالكثير من الحكايات الجنسية، فقالوا انه التقى بجارية اشتهاها فطلب الوقاع منها فأجابته قائلة: "وفار التنور" كناية عن مرورها بعادة الحيض، فقال لها: " سآوي الى جبل يعصمني من الماء!!). فردت قائلة: " لا عاصم اليوم من امر الله.

و وصفت جارية ليلتها مع رجل فقالت لقد ناكني نيكا كأنه يطلب في حري كنزا من كنوز الجاهلية.

و ما اكثر ما تدفقت قرائح الجواري بالجواب الحسن عند الحاجة. ومن ذلك ان تاجرا من تجار الجاريات عرض على الخليفة المأمون جارية في غاية الحسن والجمال غير انها كان لها عرج برجليها. فقال لمولاها، خذ بيدها وارجع بها، فلولا عرجها لأشتريتها. فقالت الجارية: يا امير المؤمنين في وقت الحاجة لا اكون كما ترى. أعجب الخليفة بجوابها وامر بشرائها.

و عن فساد القضاة رووا ان رجلين اختلفا على ملكية جارية واحتكما الى القاضي، فاقتضى ايداع الجارية في بيت القاضي امانة عليه حتى يتم الحكم

بمصيرها. وفي اليوم التالي خرج القاضي عند الصباح يولول في الطريق ويصرخ متشكيا: " يا ويلتاه! لقد ضاعت الأمانة بين الناس! فقد اودعوا عندي هذه الجارية على انها جارية بكر، فجربتها فإذا بها ثيب!"

و كما قلت، تردد ذكر الغواني والجاريات في الشعر العربي، ومن ذلك قولهم:

كتب القتل والقتال علينا

و على الغانيات جر الذيول

و نعرف بالطبع أن قصور الخلفاء كانت تعج بالجواري حتى قيل ان الخليفة المتوكل ضم في قصره الف جارية. وكما نتوقع تعذر عليه ان يعرف او يتذكر كل واحدة منهن. فصادف واحدة استهوته فسألها: أأنت بكر أم إيش؟ فقالت أنا إيش يا مولاي.

وهذه حكاية ظريفة في ان نلاحظ حتى الخليفة امير المؤمنين مشغولا ايضا ومعنيا بمسألة البكارة! وفي جولة اخرى التقى هرون الرشيد بجارية اعجبته واتفقا على وصال في اليوم التالي. ولكنها اخلفت فعبر شاعر من شعراء البلاط عن خيبة الخليفة بهذا البيت الذي اشتهر منه الشطر الأخير:

فقلت الوعد سيدتي فقالت كلام الليل يمحيه النهار

و صار البيت شعارا لساستنا وزعمائنا في وعودهم وعهودهم. وما اشبه امرهم بأمر الجواري. ومثله خلدت في الأذهان كلمات شاعر آخر:

غرروها بقولهم حسناء والجواري يغرهن الثناء

تروي كتب الأدب العربي حكايات كثيرة عن بلاغة بعض ؤلئك الجاريات وادبهن والعلاقات العاطفية المتينة التي ربطت بينهن وبين

اسيادهن. ومن ذلك ما حصل للخليفة المأمون مع احدى جواريه. دخل اليها ليخبرها بعزمه على الخروج لمحاربة الروم، فقالت: قتلتني يا سيدي. وانهمرت الدموع من عينيها وهي تنشد وتقول:

سأدعو دعوة المضطر ربا

يثيب على الدعاء ويستجيب

لعل الله ان يكفيك حربا

و يجمعنا كما تهوى القلوب

فضمها الخليفة الى صدره وقال:

فيا حسنها إذ يغسل الدمع كحلها

\و إذ هي تذري الدمع منها الأنامل

صبيحة قالت في العتاب قتلتني

و قتلي هناك بما قالت هناك تحاول

قالوا واعتلت الجارية في غيابه ولازمت فراشها. وعندما وردها نعي المأمون أنشأت تقول وهي تجود بروحها:

إن الزمان سقانا من مرارته بعد الحلاوة انفاسا واردانا

ابدا لنا تارة منه فأضحكنا ثم انثنى تارة اخرى فأبكانا

إنا الى الله فيما لا تزال لنا من القضاء ومن تلوين دنيانا

دنيا تراها ترينا من تصرفها ما لا يدوم مضافاة واحزانا

و نحن فيها كأنا لا تزايلها للعيش احياؤنا يبكون موتانا

وهي لعمري من اروع ما قاله الشعراء في الدنيا. ولكننا لا نعرف على وجه الدقة صحة ما دونه الكتاب والمؤرخون، كم منه اصيل او مختلق او مضاف اليه. ولكن، ورغم ذلك فمما يستدل من هذه الحكايات ان بعض الجواري كن على درجة عالية من الثقافة والتحصيل والإبداع، بما ادى الى نشوء علاقات عاطفية حقيقية مع اسيادهن. والظاهر ان بعض الخلفاء كانوا يمتحنون الجارية في تأدبها ومن ذلك انه عندما عرضت جارية على المهدي، طلب من ابي العيناء (وكان اعمى) ان يمتحنها فراح يستيجيزها في الشعر قائلا:

احمد الله كثيرا ...

فأكملت البيت له وقالت: حيث انشاك ضريرا!

وروى الأصمعي انه زار احد مقابر الأعراب فرأى جارية على قبر كأنها تمثال وعليها من الحلي والحلل ما لم ير مثله وهي تبكي بعين غزيرة وصوت شجي فقال لها:

"يا هذه إني اراك حزينة ولكن ما عليك زي الحزن؟ فأنشدت وهي تبكي:

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي بالا، ويكثر في الدنيا مواساتي

قد زرت قبرك في حلي وفي حلليكأنني لست من اهل المصيبات

اردت آتيك فيما كنت تعرفه ان قد تسر به من بعض هيئاتي

فمن رآني رأى عبرى مولهة عجيبة الزي تبكي بين اموات

و من طرائف ما قاله الشعراء في الجواري ان الشيخ علي الليثي رأى جارية تركية اعجبته عند الخديوي وتمنى الحصول عليها، فسأل عن اسمها فقالوا اسمها عدالة. فأنشد على مسامع الخديوي يريد هبتها له:

لدولة الترك اشكو

من جور هذي الغزالة

و غاية الأمر إني

طلبت منه " عدالة."

و اسرع الخديوي فأهداه إياها، فما الجواري غير سلع يتبادلها الرجال كما نتبادل علبة شكولاته.

و كما تغنى الشعراء في وصف جمال الجواري وغنائهن وبراعتهن، فإنهم لم يترددوا في السخرية من قبيحاتهن، كما فعل جحظة في وصف جارية دعاه احد اصحابه لسماع غنائها وعزفها والتفرج على جمالها وحسن قوامها. خرج من الحفل ليقول:

قد دعانا فأرانا خنفساة خلف عود

و تغنت من قيام كالمغني من قعود

و بمثل ذلك وصف ابن الرومي جارية تغني فرسمها بهذا التصوير الكاريكاتوري بالكلمات على عادته في الوصف والهجاء:

قينة ملعونة من اجلهـــــا

رفض اللهو معا من رفضه

تضغط الصوت الذي تشدو به

غصة في حلقها معترضه

فإذا غنت بدا في جيدها

كل عرق مثل بيت الأرضه

وقال في مغنية اخرى تمنى لو استطاع لضربها:

غنت فمس القلب كل كرب

واستوجبت منا اليم الضرب

لها فم مثل اتساع الدرب

بقباقة كبقباب الحـــــــــب

هدارة مثل هدير النجب

وهي على ما اظهرت من عجب

وتدعيه من شجى وحب

وتشتكيه من رياح الجنب

نافرة الصوت خروج الضب

حسبي بها يا نديمي حسبي

قد اصدأت سمعي وغمت قلبي

من الجدير انتذكر أن هذا الشاعر البارع في التصوير، ابن الرومي، اعظم شاعر عربي في السخرية الكاريكاتيرية ومتذوق لفنون الغناء والغانيات، عانى ما عاناه من الفقر والجوع والحرمان.

بتمزق الامبراطورية العربية وسقوط الدولة العباسية تلاشى نظام الجواري كمصدر للفن والأدب ثم زال كليا بمنع الرقيق بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥. لم تعد هناك إمات للبيع والشراء والإهداء خارج الجزيرة العربية وموريتانيا وبعض انحاء الأمبراطورية العثمانية. بيد ان ثاني مهنة في تاريخ الإنسان، مهنة البغاء، ظلت تزدهر. واصبح لها حي كامل وسط

مدينة بغداد، حي الكلجية، او المبغى العام كما اعترفت به الدولة. قام هذا الحي على البقعة التي اعتاد جنود المغول ان يأتوا اليها بما جمعوه من رؤوس المواطنين التي قطعوها وجاؤا بها لعدها وقبض اجرتهم بموجبها. فعرف المكان بالكلجية، أي محل الرؤوس. ورغم تردد بعض الشعراء كحسين مردان على هذا الحي وسكنى الرصافي بجواره، فلم ترد منهم اشعار تذكرنا بمومسات المبغى وحياتهن.

بيد ان كثيرا من الطرائف والنكات والقفشات البذيئة قد تردد بشأن هذه الشريحة من النساء العاملات في صناعة البغاء. لاحظ احد الزبائن وساخة احداهن فطلب منها ان تغسل قبل مجامعتها فقالت له :" تريدني اغسل؟ هو شنو آني حتى اغسل؟ آني مجرد مبولة كل من يجي يشخ فيها!

غير انه قد يمكننا ان نقول ان حياة الجواري استمرت في العصر الحديث بعد ان اخذت شكل ارتيستات الملاهي، الفنانات اللواتي يمتعن الجمهور بغنائهن ورقصهن وايضا بأجسامهن بعد منتصف الليل. عاش الكثير منهن عيشة الجواري بإرتباطهن بأحد الأغنياء وسادة المجتمع وكبار الضباط. الفرق بين جواري الأمس وارتيستات اليوم هو ان المرء يحصل على خدمات الجارية بدفعة مقطوعة تدفع مقدما، اما الارتيست فتحصل على خدماتها بالأقساط، تدفع سلفا بشكل هدايا. وفي كلتا الحالتين بقيت المرأة تعتمد على فرجها وجسمها في كسب لقمة العيش والإرتقاء بمستوى معيشتها. القي القبض على إحداهن واتباعها واحيلوا لحاكم جزاء بغداد، عبد العزيز الخياط، الملقب بعبد العزيز الأعرج. سألها عن اسمها وعنوانها ثم سألها عن مهنتها فقالت: " ارتيست". لم يفهم حضرة القاضي هذه الكلمة فسألها: يعني شنو انت؟ فقالت انها ترقص وتغني في

الكباريه. فالتفت القاضي الى كاتب الضبط وقال: اكتب، المهنة قحبة. ثم سأل صاحبها نفس السوآل فقال، انا سكرتيرها. فسأله يعني شنو شغلك معاها؟ فشرح له انه يدير اعمالها. فالتفت الى كاتب الضبط وقال: اكتب: المهنة قواد. ثم سأل صاحبها عازف الطبلة فشرح له مهنته كموسيقي: فقال القاضي للكاتب: اكتب المهنة قشمر (مهرج).

كان لبغداد مبغاها العام الرسمي المعروف بإسم "الكلجية" الوارد ذكره اعلاه. بقي في الوجود في قلب العاصمة العراقية حتى امر بهدمه رئيس الوزراء محمد فاضل الجمالي عام ١٩٥٦. كانت بابه مفتوحة الى الشمال نحو محلة الفضل. قدم سكانها عدة عرائض لأمانة العاصمة يطالبون بغلق هذه الباب من هذه المنطقة الشريفة وفتحها جنوبا نحو شالرع الرشيد، شارع الملاهي وحانات الخمر. بيد ان امين العاصمة، السيد عبد المجيد الشاوي ظل يماطل في الأمر رغم طلب الملك فيصل الأول. اثار الموضوع احد الوزراء في اجتماع البلاط. سأل الملك امين العاصمة لماذا تماطل في سد تلك الباب نحو محلة الفضل؟ أجابه قائلا، إنه يتمسك بالقاعدة الفقهية التي تقول القديم يبقى على قدمه والحادث يقلع. كانت الباب من القدم في هذا المكان وسيبقي عليها في هذا المكان. قاطعه احد الوزراء، ومن قال إن باب المبغى كانت هناك من القدم؟ أجابه عبد المجيد الشاوي الذي اشتهر بالظرف والسخرية: " انا اقول لك إنها كانت هناك دائما. وإذا ما تصدقني فأسأل امك!"

اصبحت حكايات البغايا ودور البغاء وطرائف كل ذلك مصدرا غنيا للظرف والتندر في شتى البلدان العربية. كان من أظرف ذلك المرثاة التي

غناها قاريء المقام العراقي يوسف عمر في نعي القواد داود اللمبجي عند وفاته في المبغى العام:

مات اللمبجي داود وعلومه
قوموا اليوم د نعزي فطومة

مات اللمبجي داود يا هوّه!
ويهوه يا اهل المروة ويهوه
قضى عمره بالقوادة ولا سوّى
غير الطيب بيها شاعت علومه

قلت هالفطومة وراه تموت
راح تنام وياه بفرد تابوت
ما تلقي مثل داود هالعكروت
عندها خدمته يا ناس معلومة

قوموا نعزي فطم وزهية
و بنت النجفي ومريم الكردية
هالداود بعد ما اله جيّه
ليت الكلجية اليوم مهدومة!
مات اللمبجي داود وعلومه

و الى غير ذلك من البذائات الظريفة التي يأبى الناشرون السماح بذكرها. وللحرمات فعلها واثرها. وقد آن لهذا الكاتب ان يضع قلمه ويقول: كفاية يا ولد!

=================





DAR ALHIKMA
lishing and Distribution

88 Chalton Street
London NW1 1HJ
l.: +44 (0) 20 7383 4037
x: +44 (0) 20 7383 0116

-Mail: hikma_uk@yahoo.co.uk
Website: www.hikma.co.uk

ISBN
19049239X